لينين والمسألة اليهودية

بقلم جورج طرابيشي

لم يطرح لينين قط المسألة القومية على صعيد نظري خالص. فلينين ليس عالم اجتماع ، بل هو قبل كل شيء قائد ومناضل سياسي يطرح الامور دوما من وجهة نظر الحزب بوصفه أداة الثورة الاشتراكية.

ولئن سود لينين صفحات كثيرة حول « المسألة اليهودية » ابتداء من عام ١٩٠٣ ، فهذا على وجه التحديد لان المسألة اليهودية طرحت نفسها كجزء لا يتجزأ من مشكلة تنظيم حزب عمال روسيا الاشتراكي ـ الديموقراطي . ففي عام ١٩٠٣ كان على لينين كما رأينا ان يناضل فكريا وسياسيا في سبيل تأسيس حزب عمالي ماركسي ثوري لعموم روسيا . وكانت اخطر العقبات التي تواجه ولادة مثل هذا الحزب كما رأينا الروح الخلقية والروح القومية الضيقة . وقد اجتمع هذان العيبان على نحو مثير للفضول في منظمة « الاتحاد العمالي اليهودي لليتوانيا وروسيا وبولونيا » المعروفة في التاريخ باسم « البوند » . فلقد تأسس البوند في عام ١٨٩٧ على اساس ديني (أو قومي) يهودي . وكان أول منظمة اشتراكية ـ ديموقراطية تظهر الى الوجود في روسيا . وعندما تداعى الماركسيون الروس في أذار ١٨٩٨ لتوحيد صفوفهم ، كان البوند من أبرز المنظمات التي حضرت ذلك المؤتمر التأسيسي الاول الذي تقرر فيه تشكيل « حزب عمال روسيا الاشتراكي ـ الديموقراطي » . ولم يكن المقصود بـ « روسيا » دولة « الروس ـ الكبار » ، بل الدولة القيصرية التي كانت بمثابة فسيفساء من الشعوب (سجن الشعوب كما سيقول لينين) . ومنعا لكل التباس اختار مؤتمر ١٨٩٨ اسم « حزب عمال روسيا ... » لا « حزب العمال الروسي » وحتى « لا يمكن لاحد أن ينسب اليه صفة قومية » (١) . وقد قرر البوند الاندماج بهذا الحزب بوصفه منظمة مستقلة ذاتيا فيما يتعلق بشؤون البروليتاريا اليهودية والاعتراف بالاستقلال الذاتي للبونديين لم يكن المقصود منه الاعتراف بصفتهم القومية وانما فقط بحقهم في مخاطبة العمال اليهود بلغتهم المحلية « الادشية » وفي الاهتمام بشؤونهم الخاصة بحكم وضعهم الخاص كأقلية دينية مضطهدة تئن تحت نير الاوتوقراطية الروسية ومجازرها اللاساسية التي لا يحصى لها عد . وقد أوضح لينين منذ عام ١٨٩٩ أن البوند ليس له طابع سياسي خاص وأنه لا يشكل تنظيما « على حدة » والا ما كان اندماج مع المنظمات الروسية ضمن اطار « حزب عمال روسيا » (٢) . ومع ذلك فان الصيغة المبهمة التي صيغ بها قرار مؤتمر ١٨٩٨ فيما يتعلق بـ « الاستقلال الذاتي للبوند بصدد المسائل الخاصة بالبروليتاريا اليهودية » تركت الباب مفتوحا امام البوند ليعلن نفسه فيما بعد حزبا قوميا للبروليتاريا اليهودية . وتلك هي على وجه التحديد نقطة الانطلاق في المساجلة الكبرى التي قامت في صفوف الاشتراكيين ـ الديموقراطيين بصدد المسألة اليهودية في عام ١٩٠٣ .

ففي نيسان ١٩٠١ عقد البوند مؤتمره الرابع واتخذ فيه قرارين خطيرين : فقد تبنى من ناحية اولى الفكرة الصهيونية عن وجود « أمة يهودية » واعتبر نفسه التنظيم القومي المستقل الاوحد للبروليتاريا اليهودية ، وتبنى من الناحية الثانية مبدأ الاتحادية في العلاقة مع « حزب عمال روسيا » . وكان هذان القراران بمثابة خرق خطير لقرارات مؤتمر ١٨٩٨ وخطوة اولى على طريق الانفصال السافر عن « حزب عمال روسيا » . ولئن كان هذا الانفصال لم يأخذ صفة رسمية الا في صيف ١٩٠٣ ، فان قادة البوند قد خططوا له بمهارة وخبث منذ مؤتمرهم الرابع على ما يبدو .

ولنحاول ان نعيد بناء الصورة التاريخية لكل ما حدث .

لقد خطت الحركة العاملة في روسيا خطوة واسعة الى الامام بعد مؤتمر ١٨٩٨ التأسيسي وفي أعوام ١٩٠٠ ـ ١٩٠٣ ، أعوام الازمة الاقتصادية العالمية .

ولكن « حزب عمال روسيا » لم يكن قد اصبح بعد حزبا بالمعنى الكامل للكلمة . ذلك ان مؤتمر ١٨٩٨ لم يضم سوى تسعة مندوبين ، ولم تلبث اللجنة المركزية التي انتخبها أن اعتقلت ، كما أن البيان الذي صدر عنه تضمن نقاط ضعف عديدة وفي مقدمتها التزامه جانب الصمت عن قيادة البروليتاريا للثورة . أضف الى ذلك ان الحزب بقي بلا برنامج وبلا نظام داخلي وبلا قيادة موحدة . وانما في سبيل ولادة حقيقية لهذا الحزب ، وفي سبيل تجاوز توحيده الشكلي صدرت في أواخر عام ١٩٠٠ صحيفة « الايسكرا » (الشرارة) اول صحيفة سياسية لثوريي عموم روسيا (من الشرارة سيندلع الحريق ، كما قال بوشكين ابان ثورة عام ١٨٢٥) .

وكان لينين هو الرأس المدبر للايسكرا ، وكانت خطته ابان وضع حد لتسيب الحزب الليبرالي والوصول الى توحيده على أسس المرحلة الايسكرية هذه النضال السياسي والايديولوجي في سبيل ثورية سليمة : « قبل ان نتحد وحتى نتحد يجب أن نبدأ بتحديد حدودنا بدقة ووضوح » ، كما جاء في بيان هيئة تحرير الايسكرا الذي أعلنت فيه عن عزمها على اصدار الصحيفة (١) . ولئن كانت « المرحلة الايسكرية » قد تميزت بضراوة النضال ضد « الاقتصاديين » الذين أرادوا قصر نضال البروليتاريا الروسية على المطالب الاقتصادية والمهنية دون المهام السياسية ، فان رشاش المعركة أصاب أيضا البونديين باعتبار أنهم كانوا متأثرين بالنزعة الاقتصادية الى حد بعيد .

وقد أخذ التحالف بين الاقتصاديين والبونديين ضد الايسكريين طابعا سافرا في اجتماع بيبلوستوك الذي انعقد في آذار ١٩٠٢ والذي حيل بين الايسكريين وبين حضوره (وصل أحد مندوبيهم متأخرا ، ومنع الثاني من الحضور ، واضطر الثالث الى الانسحاب). وقد حاول اجتماع بيبلوستوك أن ينصب نفسه مؤتمرا ثانيا لحزب عمال روسيا وأن يصدر قرارات اقتصادية ـ بوندية ملزمة لجميع منظمات الحزب . ولكن محاولته هذه فشلت ، فاكتفى بتشكيل « لجنة تنظيمية » ثلاثية (أحد اعضائها هو بورتنوي البوندي) مهمتها الاعداد للمؤتمر الثاني للحزب . ولكن بعد فترة وجيزة من انعقاد الاجتماع اعتقلت السلطات القيصرية اعضاء اللجنة التنظيمية باستثناء ممثل

(١) : « الى العمال اليهود » ـ م . ك ـ م٨ـ ص ٥٠٢ .

(٢) : « حركة متخلفة في الاشتراكية ـ الديموقراطية الروسية » ـ م.ك ـ م٤ ـ ص ٢٦٣ .

(١) : « بيان هيئة تحرير الايسكرا » ـ م.ك م ٤ ـ ص ٣٦٨ .

البوند ك. بورتنوي .

وهنا على وجه التحديد تبدأ مرحلة مريرة من الصراع بين الايسكريين (لينين) والبونديين . وفي هذه المرحلة أيضا يتكشف لنا وجه لينين هو غير الوجه الذي ألفناه ، وجه من يلعب ويحسن اللعب من وراء الستار ، و« يتكتك » ويحسن « التكتكة » ، ويطبق اللجان والمؤتمرات مع حفاظه على احترام شكلي للضوابط التنظيمية ومن غير خرق فظ أو مكشوف للشرعية الحزبية . ولعل ما يفسر لجوء لينين الى هذا الاسلوب قوة البونديين التنظيمية وضعف الايسكريين ، وكذلك مناورة البوند فياجتماع بييولوستوك لفرضخطه وتكتيكه على مجمل منظمات الحزب . ولئن كان البونديون هم الذين بادروا الى تشكيل اللجنة التنظيمية الاولى المكلفة باعداد المؤتمر الثاني للحزب ، فان لينين هو الذي سيبادر هذه المرة الى تشكيل لجنة تنظيمية ثانية تكون الغالبية فيها للايسكريين بعد اعتقال اعضاء اللجنة الاولى .

وقد وقع اختيار لينين على مناضل يدعى لينييك ليتولى تشكيل اللجنة التنظيمية . وقد تولت كروبسكايا ، زوجة لينين ، ابلاغه هذا القرار وارسلت اليه في ٢٢ أيار ١٩٠٢ رسالة تعلمه فيها باعتقال اعضاء اللجنة التنظيمية السابقة باستثناء ك . بورتنوي الذي يتوجب علىلينييك أن يتصل به لتشكيل اللجنة التنظيميةالجديدة. وتضيف كروبسكايا في رسالتها : « كن دبلوماسيا مع البوندي ولا تكشف اللعبة كلها » (١) .

وفي اليوم نفسه أرسل اليه لينين رسالة ثانية بالمعنى ذاته طالبا اليه أن يحشد اكبر عدد « من جماعتنا » في اللجان وان يكون مع البوند « حكيما حكمة الثعبان ، وديعا وداعة الحمامة » (٢) .

وبعد شهر واحد بالضبط أرسل لينين الى أركادي راد تشنكو رسالة يطلب اليه فيها العمل على تشكيل « لجنة روسية » للاعداد للمؤتمر الثاني وينبهه فيها الى ضرورة التعاون مع مندوب البوند شريطة عزله وعدم افساد المجال له الا للاهتمام « بشؤون البوند وحدها » . ويضيف بانه يجدر به (رادتشنكو) أن يعلن سلفا عن تشكيل اللجنة المذكورة حتى يقطع الطريق على البوند وحتى يملك حرية كاملة في التصرف ، وكل هذا «بحذر شديد » حتى لا يعرض نفسه للملامة . (٣) .

وفي رسالة اخرى الى رادتشنكو في ١٦ تموز ١٩٠٢ ينصحه بان « يكون حذرا جدا ومتحفظا مع البوند ، من غير ان تكشف لعبتك ، تاركا البوند يهتم بشؤون البوند ، من غير أن تسمح له بأن يدسانفه في الشؤون الروسية . وتذكر أنه صديق غير موثوق (ان لم يكن عدوا) » (٤) .

وفي آب١٩٠٢ عقدت اسرة تحرير الايسكرا مع ممثلي لجنةالحزب في بيتر سبورغ وممثلي « اتحاد الشمال » اجتماعا تم فيه تكوين النواة الايسكرية للجنة التنظيمية . وهذه النواة هي التي فرضت نفسها على اجتماع مدينة بسكوف في تشرين الثاني ١٩٠٢ ، وهو الاجتماع الذي قررت فيه القيادات الاشتراكية ـ الديموقراطية انشاء « اللجنة التنظيمية » . وكان من أعضائها كراسيكوف . ويبدو أن كراسيكوف هذا كان بارعا في المناورة الى درجة أن لينين هناه في رسالة منه اليه في تشرين الثاني ١٩٠٢ على انه « يتقدم بسرعة الى الامام بقضية اللجنة التنظيمية » . ولكن لينين أبدى دهشته في الرسالة نفسها من ان كراسيكوف هذا شكل اللجنة من ستة اعضاء عينهم تعيينا حتى قبل ان يختارهم المجتمعون «حسب الاصول» وحتى « قبل دعوة البوند » الى المساهمة في اللجنة . ويضيف لينين بان « هذه مسألة ليست بذات أهمية اذا كنت واثقا من أنه لن تنجم عنها محاذير » !(١) .

ولكن المسألة لم تمر بدون محاذير . فقد رفض البوند المساهمة في اللجنة التنظيمية بعد تكوينها على الرغم من ان الدعوة قد وجهت اليه مرتين متتاليتين . وعندما نشرت اللجنة التنظيمية بيانها الاول في كانون الاول ١٩٠٢ ، شنت صحيفة البوند «بوسليدنية ازفستيا »في ٢١كانون الاول ١٩٠٣هجوما مقزعا على اللجنة التنظيمية اتهمتها فيه بانها تريد ان تفرض على مؤتمر الحزب القادم خطا رسم سلفا . والحقيقة ان ما أثار حفيظة البوند ليس المناورات التي قصد منها عدم « اشراك البوند في اللجنة التنظيمية قبل تشكيلها النهائي فحسب ، وانما أيضا ، وفي المقام الاول ، حديث بيان اللجنة التنظيمية عن ضرورة أعتماد مبدأ المركزية في تنظيم الحزب. فلقد رأينا أن مؤتمر البوند الرابع كان قد قرر في نيسان ١٩٠١ أعتماد مبدأ الاتحادية في العلاقة مع حزب عمال روسيا . ولقد دارت بالفعل في بحر عام ١٩٠٢ مناقشة حامية بين الايسكريين والبونديين على صفحات الجرائد بصدد مسألة الاتحادية والنزعة القومية . وفي الوقت الذي راحت فيه الايسكرا تؤكد أن تحويل العلاقات بين البوند وحزب عمال روسيا الى علاقات اتحاديةيضعف الروابط بينهما ويقسم وحدة نضال الطبقة العاملة ، راحالبونديون يستشهدون بـ « التجربة المفيدة جدا للاشتراكية ـ الديموقراطية النمسوية » التي أخذت بالمبدأ الاتحادي كمبدأ ناظم للعلاقات بين العمال من قوميات شتى . ولكن يبدو أن بعض العناصر الاشتراكية ـ الديموقراطية تدخلت بهدف وقف المناظرة العلنية وافساح المجال امام نقاش رفاقي ضمن نطاق المؤتمر الثاني المتوقع انعقاده .وبالفعل توقفت المناقشة الى حين ، ثم أستؤنفت في مطلع عام ١٩٠٣ وبعنف بعد هجوم « بوسليدنيه ازفستيا » على بيان اللجنة التنظيمية .

وقد كان هجوم « بوسليدنيه ازفستيا » هذا سانحة انتهزها لينين ليضع اخيرا النقاط على الحروف فيما يتعلق بوضع البوند في الحزب . وصدر العدد ٣٣ من الايسكرا في ١ شباط ١٩٠٣ وهو يحمل مقالا للينين بعنوان « حول تصريح للبوند » .

وكان السخط الشديد هو ما يميز روح المقال . السخط لان البوند استانف المناظرة لا بروح رفاقية ، لا من وجهة نظر رفاق يرغبون في النقاش مع رفاق آخرين ، وانما على أساس حزب منفصل قائم بذاته يطرح شروطه على سائر الاشتراكيين ـ الديموقراطيين . وما دام الامر كذلك ، وما دام المرء لا يستطيع ان يفرض بالقوة على الاخرين أن يحبوه كما يقول المثل الروسي ، وما دام البوند لا يريد ان يكون جزءا من حزب عمال روسيا الاشتراكي-الديموقراطي ، اذن فقد بات من الواجب ان تصارح الايسكرا البروليتاريا الروسية، وفي المقام الاول البروليتاريا اليهودية ، بحقيقة موقف قيادة البوند ، وأن تعلن « على رؤوس الاشهاد » أن البوند « يقترف غلطة سياسية فادحة » اذ يمزق نفسه في وحل « الاهواء القومية النزعة » ، غلطة أفدح بما لا يقاس من غلطته عندما اتخذ موقفا « اقتصاديا » يلغي بالنتيجة النضال السياسي ، وأن تتوجه في خاتمة المطاف الى البروليتاريا اليهودية ، متجاوزة قيادة البوند ، لتؤكد لها ثقتها بانها ستدرك عاجلا أو آجلا أن مصالحها الاساسية تتطلب وحدة وثيقة بينها وبين البروليتاريا الروسية ضمن أطار حزب واحد ، ضاربة عرض الحائط بتلك المناقشة المفتعلة التي يريد قادة البوند ان يجروا البروليتاريا اليهودية والاشتراكية ـ الديموقراطية الروسية اليها حول ما اذا كان تطور اليهود في روسيا سيختلف عن تطورهمفي اوروبا الديموقراطية أو لا .(٢)

---

(١) : م .ك ـ م ٣٦ ـ ص ٦٤٥ .
(٢) : م.ك ـ م ٣٦ ـ ص ٩٩ .
(٣) م ك ـ م ٣٦ ـ ص ١٠٠ .
(٤) : م.ك ـ م ٣٦ ـ ص ١٠٨ .

(١) : م.ك ـ م ٣٤ ـ ص ١١٨ .
(٢) م.ك ـ م٦ ـ ص ٣٢٤ ـ ٣٣١ .

لقد اراد البوند من خلال هجومه على اللجنة التنظيمية مناظرة علنيـة . اذن فلتكـن علنية . واذا كان لينين قد التزم الصمت حول مواقف وتصريحات سياسيـة ومذهبيـة عديدة للبوند حرصا علـى وحدة التنظيم وانتظارا للمؤتمر الثاني للحزب ، فـلا مفر بعد الآن من مجابهة صريحة . ولا بأس من العودة قليـلا الى الوراء ومحاسبة البوند على مواقفه الانفصاليـة السابقة . والحق ان المرء لايحتاج الى الايغال بعيدا في ماضي البوند . أفلم تنشر « بوسليدنيه ازفستيا » الناطقـة بلسان « لجنة البوند في الخارج » قبل اسبوع واحد لا غير من هجومها على اللجنـة التنظيمة مقـالا مرا في انفصاليته اعلنـت فيـه بصفاقـة ، ضاربة عرض الحائط بمقررات مؤتمر ١٨٩٨ ، أن « البروليتاريا اليهودية قد نظمت نفسها في حزب سياسي متمايز ، البوند » ؟ ان المؤتمر الرابع للبوند الذي تبنى الفكرة الصهيونية عن وجود أمة يهوديـة لم يجرؤ هـو نفسه علـى اعـلان ما أعلنتـه « بوسليدنيه ازفستيا » . فصحيح ان المؤتمر الرابع ذاك تبنى المبدأ الاتحادي كشكل ناظم للعلاقة بيـن البوند وبين حزب عمال روسيا ، ولكـن البونديين صرحـوا بعد ذلك بطريقـة لا تقبل التباسا أنهم انمـا يريدون ان يقنعوا حزب عمال روسيـا بان يتبنى بدوره قـرار مؤتمرهم الرابع . وهذا يعنـي ان البوند كـان مـا يزال يعتبر نفسه جزءا من حزب العمال . ولكـن ها هـو يعلن فجأة ، وبعد انصـرام حوالي سنتيـن على مؤتمره الرابع ، أن البروليتاريا اليهودية قـد نظمت نفسها في حزب سياسي متمايز . وهذا ، والحـق يقال ، نبأ جديد . وانما تطبيقا لهذا القرار الجديد شنت صحيفة البوند ، في المقال نفسه ، هجوما مقزعا على لجنة الحزب في مدينة بيكاتيرينوسلاف الاوكرانية التي كـان فيها عدد لا بأس به من العمال اليهود . أما سبب الهجوم فهـو أن لجنة الحزب في تلك المدينـة قد أباحت لنفسها حق اصدار بيـان تعلن ضرورة وحـدة جميع العمال مـن شتى القوميات وشتى الاديان في حزب واحد هو الحزب الاشتراكي ـ الديموقراطي، وتتوجه بشكل خاص الى العمال اليهود لتؤكـد لهم ضرورة تلـك الوحدة باسم مصالحهم القومية بالذات وحفاظا على ثقافتهم القومية وتطورهـا . ولقـد غضبت قيادة البونـد غضبتها المضرية لان لجنـة بيكاتيرينوسلاف لم تأت في بيانها على ذكـر البوند وتجاوزته وتعدت على حقوقه بمخاطبتها العمال اليهود مباشرة . أما الدواعي المذهبية لغضبتهـا فهي أن لجنة بيكاتيرينوسلاف « لم تهضم فكـرة ضرورة تنظيم منفصل لقوى البروليتاريا اليهودية » وأنها « ما تزال تداعب حلمـا مجنونا بالتخلص من البوند بطريقة أو أخرى » وأنهـا تتجاهل « وجود الحركة العاملة اليهودية المتمايزة » وأنها تشيع « اسطورة ضارة » تزعم أن اللاسامية هي مـن صنع الفئات البورجوازية وحدها وليست ايضا من صنع الفئات العمالية . وبديهي ان السؤال الذي يطرح نفسه بعـد كل هذه الثرثرة الفارغة القومية النزعة هو « هل البروليتاريا اليهودية بحاجة الى حزب متمايز ؟ » . وبالفعل تحت هذا العنوان نشر لينين في العدد ٣٤ مـن الايسكرا في١٥ شباط ١٩٠٣ مقالا يسفه فيه تسفيها شديدا شتى الاراء التي أبدتها « بوسليدنيه ازفستيـا » :

ـ ليس من حق البوند ان يحتج علـى تجاوزه مـن قبل لجنة بيكاتيرينوسلاف لان البوند لا وجود له في هذه المدينة ولان اللجنة المذكورة لم تتوجـه الى العمال اليهود قاطبة وانما الى العمال اليهود في بياتيرينوسلاف وحدها .

ـ ان البوند نفسه قد قرر في مؤتمره الرابع أنه لن يشكـل لجانا متمايزة في المدن التي تشكل فيها المنظمات اليهودية جزءا من حزب عمال روسيـا .

ـ اندعوة البوند لقيام تنظيم منفصل لقوى البروليتارياليهودية هي في الحقيقة دعوة الى تنظيم « عجز البروليتاريا اليهودية » لا قواها ، بل هي دعوة الى تنظيم عجز بروليتاريا روسيـا كلها ، لان المنطق الكامـن وراء هذه الدعوة منطق رجعي وطائفي خطر ليس له من نتيجـة غير زرع الانقسام في صفوف الحركة العاملة . وليس أدل على ذلك من حديث البوند عن « منظمة عمالية يهودية مستقلة » وعن « منظمات عمالية مسيحية » . والحال انه لا وجود لمنظمات «مسيحية» في الحزب الاشتراكي ـ الديموقراطي ، ولم يكن الدين في يوم من الايام اساسا مشروعا لانقسام العمال او تمايزهم .

ـ ان زعم البوند بأن اللاسامية انتقلت الـى صفوف الحركة العاملة ولم تعد وقفا علـى الفئات البورجوازية زعـم باطل ودنيء . والبرهان الذي يأتي به البوند على زعمه هذا باطل هو الاخر بـل مضحك . ان التذرع في هذا المجال بواقع ان بعض العمال (خمسة او عشرة) قد شاركـوا في أحدى مجازر اليهود أو هددوا بالمشاركة فيهـا ، لا يمكـن أن يصـدر الا عن فئـة اعتادت المساهمة فـي الاضرابات الجماهيرية بخمسة او عشرة من أعضائها . ولو رجـع البونديون الى كتاب كاوتسكي « الثورة الاجتماعية » الذي ترجموه الى اللغـة الادشية (لغـة يهود روسيا) لتبينوا بما لا يدع مجالا للشك ان اللاسامية مرتبطـة ارتباطا وثيقا بل حتميا بمصالح الفئـات البرجوازية لا بمصالح الفئات العمالية . والحق انه بقدر ما كانت لجنة بيكاتيرينوسلاف محقـة في دحضها الاسطورة الصهيونية بصدد الطابع الابدي الازلي للاسامية ، كانت قيادة البوند مجحفة بحـق قضية الطبقة العاملة (اليهودية وغير اليهودية) لانها بتجريدهـا النزعة اللاسامية من طابعها التاريخي والبورجوازي انمـا تشوش في الحقيقـة وعي البروليتاريا الطبقي .

ـ ان الخطأ الذي يرتكبه البوند هو اكبر وأفـدح خطأ يمكـن اقترافـه فـي المسألـة القوميـة ، لان مقتضيات النضال ضـد الاوتوقراطية تستدعي وحدة عمال جميع القوميات المضطهدة مـن قبل هذه الاوتوقراطية لاتشتيتهم وعزلهم في منظمات قومية مستقلة وضيقـة الافق . والواقع انه من اللحظة التي طالب فيها البوند بمبدأ الاتحاد بدلا من الاستقلال الذاتي ، أمسى واجبا عليه ان يعلن نفسه « حزبا سياسيـا متمايزا » حتى تتاح له امكانيـة تحقيق ذلك الاتحاد بأي ثمن . ولو لم يمرغ البوند نفسه في وحل النزعة القومية الضيقة ، لكـان من الممكـن ان يرى في مقررات مؤتمر ١٨٩٨ ما يكفل له كل الاستقلال الذاتي الذي هو بحاجـة اليـه فيمـا يخص البروليتاريا اليهودية : الدعاية والتحريض بالادشية ، المنشورات والمؤتمرات ، تقديم مطالب خاصة على اساس البرنامج الاشتراكي ـ الديموقراطي الواحد المشترك ، وتلبيـة الحاجات المحلية والمطالب المحلية النابعة من خصوصيات نمط الحياة اليهودية . أما فيمـا عدا ذلك ، وفـي المسائل الجوهرية المتعلقة بالنضال ضد الاوتوقراطية في روسيا قاطبة، فلا غنى عن منظمة نضالية موحدة وممركزة تضم بروليتاريا روسيـا كلهـا دونمـا تمييز لغوي أو قومي .(١)

لقـد تحدد اذن العدو الرئيسي الذي سيواجهه الايسكريون في المؤتمر الثاني للحزب . ففي الوقت الذي كـان فيه الاتجاه الاقتصادي قد سجل تراجعا ملموسا في صفوف الاشتراكين ـ الديموقراطيين، وفي الوقت الذي لم يكـن فيه الاتجاه المنشفي قد أعلن عن وجوده بعد ، أمست النزعة القومية الضيقة كمـا يمثلها البوند هي أخطر ما يهدد وحدة الاشتراكيين ـ الديموقراطيين وسلامة الاسس التي يريدون ان يقيموا عليها تنظيمهم الموحد . ومن هنا فقد أصبح من الواجب استنفار قوى الايسكريين كافـة لمواجهة خطر الانحـراف والتحريف البوندي .

ورسائل لينين الخاصة غير المكتوبة برسم النشر لا تدع مجالا للشك في هـذا الصدد . ففي ٣١ آذار ١٩٠٣ أرسل لينين من لندن رسالة الى أعضاء اللجنة التنظيمية يطلب اليهم فيها « تهيئة الميدان في كل مكـان وبين الجميع للنضال ضد البوند في المؤتمر » ، ذلك أن « البوند لن يتخلى عن مواقفه بدون نضال ضار . والحال انه لن

(١) : م.ك ـ م ٦ ـ ص ٣٣٧ ـ ٣٤٢ .

يكـون في وسعنا ابدا ان نتبنـى مواقفه . وتصميمنا الحازم علـى المضي الى النهايـة ، الى حد فصل البوند من الحزب ، هو وحده الذي سيرغمه بلا ريب على الرضوخ » .(1)

وفي رسالـة اخرى في ٣نيسان ١٩٠٣ الى كريانوفسكي يؤكـد لينين ضرورة استمرار المناظرة مع البوند بصدد المبادىء وان كان قد تم ايقاف المناظرة بصدد اللجنة التنظيمية ، ويضيف بانه « يجب ان نعـد العدة للحرب ضـد البوند اذا كنـا نريد السلم معه .الحرب في المؤتمر ، الحرب الى حد الانشقاق ، ومهما يكن الثمن . فانذاك فقط سيرضخ » . (٢)

ويؤكد لينين في رسالة الى الكسندرونوفا بتاريخ ٢٢ أيار ١٩٠٣ ان « تهيئة اللجان ضد البوند واحدة من اهـم المهام فـي الوقت الراهن ، وهي ممكنة تمامـا بدون خرق الشكليات » . والحرص على هذه « الشكليات » ضروري لانه « في وسع البونديين ان يذهبـوا اذا شاؤوا ، ولكـن علينا نحن الا نقدم لهم أي ذريعة ، ولا ظـلا من ذريعة للقطيعـة » .(٣)

وبالمقابل فـان البوند ، الذي ادرك على مـا يبدو الخطة التي تدبـر ضده في المؤتمر الثاني للحزب ، راح يبذل كل جهوده لعرقلة انعقـاد مؤتمر ايسكري الاتجاه . كمـا أنه بادر في حزيران ١٩٠٣ الى عقد مؤتمره الخامس حتـى يرسـم خطـة مضادة . وقـد اتخـذ المؤتمر الخامس هذا قرارا ينص على ان « البوند هو منظمة متحدة مع حزب عمال روسيا الاشتراكي ـ الديموقراطي » وعلى أن البوند هو « الممثل الاوحد للبروليتاريا اليهودية » . وتنفيذا لمبدأ احتكار تمثيل البروليتاريا اليهودية هذا الغى المؤتمر الرابع والذي ينص على ان البوند لن يشكل لنفسه منظمات متمايزة في المناطق التـي يكون فيها العمال اليهود منتمين الى المنظمـات الاشتراكية ـ الديموقراطيـة . وتنفيذا لذلك المبدأ أيضـا قرر المؤتمر الخامس أن اللجنة المركزيـة لحزب عمال روسيـا لا يحق لهـا أن تتوجه الى اي عامل يهـودي في أي بقعة من بقاع روسيـا مهما كانت نائية ، حتى وان لم يكن فيها تنظيم مستقل للبوند ، الا بواسطة اللجنة المركزية للبوند وبموافقتها. وكانت هذه القرارات تعني عمليا أن البوند قد حزم أمره على الانفصال عن حزب عمال روسيـا نهائيا . وتجنبا لتهمـة الانفصالية هـذه ، وذرا للرمـاد في العيون ، صاغ المؤتمر الخامس مقرراته تلك فـي صورتين : مقررات الحد الاعلى ومقررات الحد الادنى . ولم يكن من فارق بيـن الصيغتين الا في الشكل لا في المضمون . فمقررات الحد الادنى هي نفسها مقررات الحد الاعلى ، وكل ما هنالك انها مموهة، ولا تسمي الاشياء باسمائها . فقـد حذفت منهـا الاشارة الى مبـدأ الاتحاد ولكن مع الاحتفاظ بكل نتائجه العملية . وكان واضحا مـن الازدواجية الشكلية لهذه المطالب ان الهدف هو المساومة والمناورة. فان لم يقبل المؤتمر الثاني لحزب عمال روسيا بمطالب الحد الاعلى ، قدمت اليـه مطالب الحد الادنى . فاذا ما رفضها بدورها ظهر بمظهر المتصلب المتشنج وتلبسته هو تهمة الانفصالية ، بينمـا سينجو البوند بجلده اذ يكون قد ظهر بمظهر المتساهل الذي لا يحجم عن تقديـم التنازلات بهدف الحفاظ على الوحـدة .

انسحـاب البونـد

آن لنا الآن أن ندلف الى قاعة المؤتمر الثاني لحزب عمال روسيا بعد أن طفنا بما فيه الكفايـة فـي الكواليس والممـرات الجانبيـة المفضية اليـه . والحقيقة ان المؤتمر لم يكن له من قاعة يعقد فيها. فقد اجتمع اولا سرا في بروكسل ثم في لندن بين ١٧ تموز و١٠ آب، وحضره ٤٣ مندوبا يمثلون ٢٦ منظمـة ولهم ٥١ صوتا فعليا (اذ كان ثمانية منهم يحمل تفويضين) وبينهم ٥ مندوبين عن البوند . وقد تم في اليوم الاول تشكيـل « لجنـة التفويضات » ومهمتها دراسـة « اوراق اعتماد » المندوبيـن والتحقق من شرعية تمثيلهم لمنظماتهم . وكان من ضمـن اعضاء اللجنة ، بالاضافة الى لينين ، أحدمندوبـي البوند .وقد اتبع هذا الخطة التي كـان قد اتبعها سلفه في « اللجنة التنظيمية » ، أي العمل بكل وسيلة ممكنة على عرقلة أعمال المؤتمر. فراح يضع العصي بين العجلات ويخالف رأي اللجنة في كل مسألـة ويدخل في مناقشات لا نهايـة لهـا ثم يعلن بعد ذلك أنه « يحتفظ برأيه » بصدد كل موضوع . وعندما لفت نظره في خاتمة المطاف الى أنه يعرقل بموقفه هذا أعمال المؤتمر ، أجاب : « حسنا ، فليكن الامر كذلك ! » ، وأعلن أنه على استعداد لان يقيم في اللجنة « ما أقـام عسيب !» . ولم تتمكـن اللجنة من انهاء دراسة اوراق اعتمادالمندوبين الا في السـاعـة الثالثة صباحـا !

وفي اليوم التالي افتتح المؤتمر جلساته بمناقشة أولويـات جدول أعماله . وكان هناك رأي يميل الـى اعطـاء الاولوية لتقارير المنظمات ولمشروع برنامج الحزب ، ولكن لينين (واللجنة التنظيمية) عارض ذلك ، وطلب ان تكـون مسألة البوند ومكانته في الحزب في رأس جدول الاعمال . وكان هذا معناه أن على المؤتمر أن يقرر قبـل كل شيء ما اذا كان البوند يشكل جزءا من الحزب أو لا . واذا جاء القرار بالايجاب امكن للبوند ان يحضر سائر جلسات المؤتمر ، والا فلا . لماذا ؟ لان المؤتمر انعقد على اساس بيان ١٨٩٨ ، والحال ان البوند قد أعلن عن عدم التزامه بهذا البيان منـذ ان قـرر أن تكون علاقاته مع الحزب علاقات اتحاديـة .

وبدأ المؤتمر بالفعل ببحث مسألة مكانة البوند فـي الحزب . وتلي على الحضور « مشروع قرار حول مكانة البوند في الحزب » ، وهو المشروع الذي كـان لينين قد أعده قبل أيام من انعقاد المؤتمر وناقشه مع عدد من المندوبين واتفق معهم على خطة العمل . وكـان مشروع القرار هذا ينص على رفض المبدأ الاتحادي في تنظيم الحزب وعلى توكيـد المبدأ التنظيمي المركزي الذي نص عليه بيـان ١٨٩٨ ، وذلك حفاظا على وحدة نضال الطبقـة العاملـة ، ولا سيما وحـدة البروليتاريـا اليهوديـة والبروليتاريا غيـر اليهودية ، لا في سبيل الوصول بأسرع ما يمكن الى الهدف النهائي الذي هـو تحريرالمجتمع عن طريق تحرر البروليتاريا فحسب ، بل أيضا في سبيل الوصول الى فعاليـة حقيقيـة في النضال ضد اللاساميـة والمشاحنات القوميـة البغيضـة التي هي مـن صنع الاوتوقراطية والطبقات المستغلة .(1)

وتقدم البوند بمشروعه المضاد الذي ينص علـى اعتمـاد المبدأ الاتحادي ، واحتدم النقاش .ووقف ف . كوسوفسكي ،مندوب البوند، يعلن ان ثمة مؤامرة قد حيكت ضد البوند في المؤتمر وان هذا المؤتمر يشكل « غالبية كتيمة » لا يمكـن النفاذ اليهـا وليست على استعداد لاي تفاهم او تنـازل .

وانبرى لينين يرد عليه ويؤكد أنه اذا كان المؤتمر قد توصل الى تشكيل « غالبية كتيمة » ، فهذا لا يدعو الى الخجل والاستنكار ،وانما على العكس الى الافتخار . ولسوف يزداد الحزب فخـرا فيما لـو اصبح ٩٠ ٪ من أعضائه يمثلون « غالبية كتيمة » بل « كتيمة جدا ». ففي هذا دليل على انه قـد أصبح حزبا بكل ما في الكلمة من معنى، حزبا موحدا . ويكفي الحزب داء الآن انـه منقسم الى مجموعـات وتكتلات . ومع ذلك فـان البونديين يريدون أن يزيدوا في انقساماته أضعافا مضاعفة عن طريق تكرارها في كل حزب « قومي » متحد ،وعن طريق تكريس الانعزال والانقسام والخصوصيـة باسم الاتحادية .(٢)

(١) : م.ك ـ م ٦ ص ٤٩٢ ـ ٤٩٣ .
(٢) : « خطاب حول مسألة مكانة البوند » ـ م.ك ـ م ٦ ـ ص ٥٠٩ ـ ٥١٠ .

(١) : م ـ ك م ٣٤ ـ ص ١٥٤ .
(٢) : م.ك ـ ٣٤ ـ ص ١٥٥ .
(٣) : م .ك ـ م٣٤ـص ١٦٠ .

ووقف كذلك ليبر ، زعيم البونديين ، يدافع عن مبدأ الاتحاد الاستقلال الذاتي ، ولكن من وجهة نظر غريبة وتدعو الى الابتسام حقا. فما دام المؤتمر حريصا الى هذا الحد على المركزية ، غير مستعد للتنازل ولو قيد انملة بصددها ، فلا بأس أذن من قلب المفاهيم رأسا على عقب والادعاء بأن الاتحادية هي المركزية في حين ان الاستقلال الذاتي هو اللامركزية . ولينين هو الذي انبرى أيضا لتفنيد هذا الادعاء المضحك: هل يعتقد ليبر أن أعضاء المؤتمر أطفال في السادسة من العمر حتى « يمرر » عليهم مثل هذه السفسطات ؟ فالمركزية انما تعني ، تعريفا ، غياب كل حاجز بين المركز والاطراف مهما نأت وابتعدت ، ومن حق المركز أن يصل مباشرة الى أي عضو من أعضاء الحزب . والحال ان الاتحادية التي يقترحها البوند تعني ان المركز لا يحق له ان يتصل بأي عامل يهودي عن غير طريق قيادة البوند . فكيف يمكن اذن أن تكون الاتحادية هي المركزية ؟ وهل يقبل البوند نفسه بتطبيق مثل هذه «المركزية الاتحادية » على نفسه ؟ هل تقبل قيادة البوند بمركزية لا تسمح لها بالاتصال بالحزبيين والمنظمات الحزبية في هذه المدينة أو تلك الا عن طريق لجنة المدينة ؟ ان البوند يزعم أنه يريد الاتحادية لتجنب « التدخل الاعشى » من قبل المركز في شؤون المنظمات الحزبية . ولكن هل يتصور البوند أن الحزب يقبل على نفسه بأن تكون على رأسه قيادة مركزية تتدخل تدخلا أعشى في شؤون منظمات الحزب ؟ ألم يقر الحزب أصلا بمبدأ الاستقلال الذاتي لجميع منظمات الحزب بهدف الحيلولة دون « التدخل الاعشى » من قبل المركز، مع بقاء تلك المنظمات خاضعة في الوقت نفسه للمركز ؟ والحقيقة ان البوند لم يتحدث عبثا عن « التدخل الاعشى » ولم يشكك عبثا في نزاهة القيادة المركزية . فكل المبادىء التنظيمية الاتحادية التي يقترحها ليست في الواقع سوى « ريبة منظمة » . والحقيقة أيضا ان البوند الذي نظم نفسه في الداخل على اساس مركزي لا يريد لمجموع الحزب ان يتوصل الى نفس المستوى من التنظيم . وما أشبه البوند في هذه الحالة بنقابات عمال المناجم الانكليزية .

فلقد وصلت هذه النقابات الى مستوى مرموق من التنظيم وحصلت بفضل ذلك على تقليص يوم العمل الى سبع ساعات .ولكنها لهذا السبب على وجه التحديد راحت تعارضها ، مدفوعة بأنانيتها، مطالبة سائر العمال الانكليز بتقليص يوم العمل حتى الى ثماني ساعات . والحق أن تصور هذه النقابات عن وحدة البروليتاريا لا يقل ضيقا عن تصور رفاقنا البونديين . الا فليكن مثال عمال المناجم الانكليز التعيس هذا بمثابة تحذير للرفاق البونديين ! (1)

وانتهت المناقشة حول مكانة البوند في الحزب الى حل وسط . فقد اتخذ المؤتمر قرارا مبدئيا عاما بادانة المبدأ الاتحادي في التنظيم وباعتماد المبدأ المركزي وحده . اما مكانة البوند في الحزب فقد تقرر تأجيل بحثها الى حين مناقشة نظام الحزب الداخلي . وبالرغم من عمومية القرار وطابعه التوفيقي ، فقد كان نصرا مبينا للاتجاه الايسكري ، نصرا لا على البوند وحده ، بل أيضا على مختلف الميول الاتحادية والانفصالية التي كانت قد شرعت بالبروز في أوساط الاشتراكيين ـ الديموقراطيين « القوميين » كالبولونيين والليتونيين والليتوانيين والارمن . وليس هذا فحسب ، بل ان مفعول القرار تجاوز اطار روسيا الى الصعيد الاممي . فقد كان ردا شبه مباشر على القرار الذي كان قد اتخذه الاشتراكيون ـ الديموقراطيون النمسويون قبيل انعقاد المؤتمر الثاني باعتماد مبدأ الفيدرالية في التنظيم الحزبي وبتحويل حزبهم الى مجموعة من أحزاب متحدة على اساس القوميات .

ونشبت الخصومة الثانية مع البوند في المؤتمر عند مناقشة مشروع برنامج الحزب ، ولا سيما الفقرة المتعلقة منه بحق الامم في تقرير مصيرها . فقد حاول ممثلو البوند ، استكمالا لنظرياتهم « النمسوية » الاتحادية والقومية النزعة ، ان يعارضوا شعار حق الامم في تقرير مصيرها بشعار الاستقلال الذاتي القومي الثقافي . ولكن معارضتهم هذه لم تأخذ طابعا عنيفا . والسبب في ذلك انهم ما كانوا متحمسين آنذاك عظيم الحماسة لمبدأ الاستقلال الذاتي الثقافي وما كانوا قد ادركوا بعد مقدار تلاؤم هذا المبدأ مع نظريتهم عن وجود أمة يهودية . وصحيح أن مؤتمرهم الرابع كان قد تبنى شعار الاستقلال الثقافي ، ولكنه فعل ذلك بصورة متسرعة ودونما مناقشة مفصلة ومعمقة ودونما بحث في ظروف حياة اليهود في روسيا. وقد اعترف ف . كوسوفسكي نفسه فيما بعد بالصورة المتسرعة التي تم بها اقتباس شعار المدرسة النمسوية فقال :« عندما بحثت القضية القومية في مؤتمر البوند الرابع اقترح أحد اعضاء المؤتمر حل القضية القومية وفق منهاج الحزب الاشتراكي ـ الديموقراطي السلافي الجنوبي، فلاقى اقتراحه استحسانا عاما ، ونتيجة لذلك فان المؤتمر قبل بالاجماع الاستقلال الذاتي القومي الثقافي » .

والواقع ان البونديين في المؤتمر الثاني لم يعارضوا الفقرة التاسعة من البرنامج المتعلقة بحق الامم في تقرير مصيرها ، بقدر ما حاولوا « تطويرها » و« استكمالها » بفقرة مقتبسة من البرنامج النمسوي . فقد اقترح غولدبلات البوندي أن تضاف الى الفقرة التاسعة جملة عن « انشاء مؤسسات تضمن للامم حرية التطور الثقافي الكاملة » ، واقترح ليبر أن تضاف اليها جملة عن « حق الامم في تطور ثقافي حر » . ولكن غولدبلات نفسه دافع امام المؤتمر عن الفقرة التاسعة قائلا : « لا يمكن الاعتراض مطلقا على حق حرية تقرير المصير . واذا ما ناضلت أمة من الامم في سبيل استقلالها ، فلا تجوز معارضتها . واذا كانت بولونيا لا تريد أن تعقد زواجا شرعيا مع روسيا ، فيجب أن يترك لها الامر كما قال الرفيق بليخانوف .وفي هذه الحدود أنا اوافق على وجهة النظر هذه » . وتلاه ليبر على المنصة ليؤكد أنه « اذا كانت احدى القوميات لا تستطيع ان تحيا في حدود روسيا ، فان الحزب لن يضع العقبات امامها » .

ومهما يكن من امر فقد أقر المؤتمر الثاني الفقرة التاسعة دونما تعديل ، اذ لم يحظ اقتراح غولدبلات بأكثر من ثلاثة اصوات ، واقتراح ليبر بأكثر من أربعة اصوات. ولم يعتبر البوند هذا الاقتراع هزيمة له ، لانه كان يعد « قنبلته » للجولة الثالثة التي سيجري فيها بحث المسألة التنظيمية (اقرار النظام الداخلي للحزب وتحديد مكانة البوند فيه) . والحق أنه في تلك الجولة الثالثة على وجه التحديد مني الاتجاه الايسكري بأول هزيمة منكرة له في المؤتمر ، وذلك عند التصويت على البند الاول من النظام الداخلي للحزب بصدد تعريف العضوية الحزبية . ولا يتسع المجال هنا للدخول في تفاصيل الخلاف بين لينين ومارتوف حول تعريف عضو الحزب، والمهم أن الايسكريين انقسموا على أنفسهم ، وان الغلبة كانت للمارتوفيين، وان المندوبين البونديين الخمسة صوتوا ضد اقتراح لينين وتحالفوا مع مارتوف . وقد وصف لينين هذا التحالف فيما بعد بانه ادهى خطر ظهر في المؤتمر على مستقبل الحزب وبأن الايسكريين اضطروا ازاءه الى « حشو بنادقهم بكمية مزدوجة من البارود » لمواجهة خصومهم .

وبعد الانتهاء من اقرار النظام الداخلي للحزب انتقل المؤتمر الى بحث مسألة مكانة البوند في الحزب . وطلب البوند من المؤتمر أن يعترف به ممثلا أوحد للبروليتاريا اليهودية . ولكن المؤتمر رفض هذا المطلب بغالبية ساحقة ، وصوت المارتوفيون أنفسهم ضده .ولم يكن امتناع المارتوفيين عن التصويت الى جانب اقتراح البونديين دليلا على وهن التحالف بينهم بقدر ما كان برهانا على ان مطلب البوند باحتكار تمثيل البروليتاريا اليهودية هو مطلب مستحيل لا يستطيع تأييده حتى اصدقاؤهم ، ولا سيما بعد ان كان المؤتمر قد رفض بالاجماع المبدأ الاتحادي القومي في التنظيم .

والواقع أن البوند كان قد أصبح سيد الموقف في المؤتمر .فقد

(1) : المصدر نفسه ـ ص ٥١٠ ـ ٥١٢ .

كانت أصوات الايسكريين والمارتوفيين شبه متساوية ، وكانت أصوات البونديين الخمسة قادرة على تقرير مصير كل اقتراع . ولهذا فقد فوجىء المؤتمرون مفاجأة حقيقية عندما قرر مندوبو البوند الانسحاب من المؤتمر معلنين ان حزبهم قد قطع صلته بحزب عمال روسيا بعد ان رفض المؤتمر الاعتراف بالبوند ممثلا أوحد للبروليتاريا اليهودية. وقد فوجىء الايسكريون اكثر من غيرهم لانهم كانوا على يقين من أن البوند كان يستطيع الحصول على ما يشاء من التنازلات المعقولة من جانب المارتوفيين بحكم الاهمية الحاسمة لاصوات مندوبيه الخمسة. ولم يجد لينين تفسيرا لقرار البوند المفاجىء بالانسحاب سوى أن مندوبيه كانت لديهم اوامر مسبقة بهذا الخصوص . والواقع ان الانسحاب كان قد تقرر في مؤتمر البوند الخامس .

وبادر لينين من فوره الى اعداد مشروع قرار بادانة انسحاب البوند . وقد جاء في هذا المشروع ما يلي : « ان المؤتمر يرى ان البوند قد ترك حزب عمال روسيا الاشتراكي ـ الديموقراطي على اثر رفض مندوبي البوند الامتثال لقرار غالبية المؤتمر .

ويعلن المؤتمر عن أسفه العميق لهذه البادرة التي تشكل في رأيه غلطة سياسية فادحة يقترفها القادة الحاليون لـ « الاتحاد العمالي اليهودي » ، وستلحق نتائجها الضرر حتما بمصالح البروليتاريا اليهودية والحركة العاملة . ويقدر المؤتمر ان الحجج التي تذرع بها مندوبو البوند لتبرير فعلتهم من وجهة النظر العملية ترتد الى هواجس وشكوك ليس لها ما يبررها بصدد صدق وثبات القناعات الاشتراكية ـ الديموقراطية للاشتراكيين ـ الديموقراطيين الروس ، وتمثل من وجهة النظر النظرية نتيجة مؤسفة لتسرب النزعة القومية الى الحركة الاشتراكية ـ الديموقراطية البوندية . ويعبر المؤتمر عن رغبته وقناعته العميقة في ضرورة الوحدة الكاملة الوثيقة بين الحركة العاملة اليهودية والحركة العاملة الروسية في روسيا على صعيد المبادىء وعلى صعيد التنظيم ، ويقرر اتخاذ جميع التدابير لاطلاع البروليتاريا اليهودية بالتفصيل على قرار المؤتمر هذا ، وبصورة أعم على موقف الاشتراكية ـ الديموقراطية الروسية من كل حركة قومية » . (١)

ولكن لينين امتنع ، لسبب ما ، عن تقديم مشروعه هذا . ومهما يكن من أمر ، فقد أدى انسحاب البوند الى تبدل موازين القوى داخل المؤتمر . فبعد أن كانت الغالبية الى جانب مارتوف وجماعته (المناشفة فيما بعد) أمست الى جانب لينين والايسكريين . وتجلى هذا الانقلاب عند انتخاب الاجهزة القيادية في الحزب اذ فاز فيها الايسكريون بحصة الاسد . ومن هنا أطلق عليهم أسم « اصحاب الغالبية » (البلاشفة) ، وأطلق على خصومهم اسم « المناشفة » (اصحاب الاقلية) . وقد اعترف لينين فيما بعد بهذا التبدل الذي أحدثه انسحاب البوند وقال في رسالة منه الى بائعة الكتب التقدمية كاليميكوفا في مطلع أيلول ١٩٠٣ بأن المارتوفيين كانوا سيهزمون الايسكريين « لولا انسحاب البوند . (٢) .

وبديهي ان المناظرة مع البوند لم تنته بانسحابه من الحزب ، ولا بانتهاء المؤتمر الثاني . بل على العكس من ذلك تماما . وقد كان كل اعتقاد لينين أن « رحيل البوند خير » اذا ما اخذ الخلاف معه طابعا علنيا ، ولم يبق سرا راقدا في محاضر جلسات المؤتمر الثاني . ولهذا لم يأل لينين جهدا طوال الشهور المتبقية من عام ١٩٠٣ وطوال عام ١٩٠٤ في اذاعة الخلاف بين الحزب والبوند على أوسع نطاق ممكن. ولقد كان وضع الحزب التنظيمي هو هدفه الرئيسي ، الآن كما في البداية ، من وراء متابعة المناظرة . وكان أقصى ما يصبو اليه هو الارتفاع بتنظيم حزب عمال روسيا الى نفس مستوى تنظيم البوند. ولم يكن يكتم ذلك : « لنحاول أن نقارن حزبنا بالبوند على سبيل المثال . فمما لا شك فيه أن مضمون عمل حزبنا أغنى وأشمل واوسع وأعمق بما لا يقاس من مضمون عمل البوند ، وان نطاقه النظري أوسع ، وأن برنامجه اكثر تطورا ، وأن تأثيره على الجماهير العمالية أشمل وأعمق ، وأن دعايته وتحريضه اكثر تنوعا ..

أما « الشكل » ؟ ان « شكل » عملنا متأخر عن شكل عمل البوند الى حد يفقأ العين ويبعث حمرة الخجل .. ان نقطة ضعفنا تكمن في تأخر تنظيم عملنا عن مضمونه . والشكل البدائي والهشي لا يسمح بتطوير المضمون تطويرا جديا ، ويسبب جمودا منكرا ، ويؤدي الى تبذير القوى ، ويجعل الافعال غير متناسبة مع الاقوال » (٣).

وهذا على وجه التحديد ما كان يثير سخطه على البوند . فقد كان البوند يريد ، على طريقة نقابات عمال المناجم الانكليز ، أن يستغل تقدمه التنظيمي ليضع المزيد من العراقيل في وجه تقدم سائر الاشتراكيين ـ الديموقراطيين الروس. يريد ان يستغل « نقاط ضعف » التنظيم الروسي ليعمق انفصاله عنه وليحطمه الى الابد .(٤) وكانت خطة البوند هذه تتلخص في كلمة واحدة : الاتحادية . ففي الوقت الذي كان فيه البوند منظما على اساس مركزي ، كان يبذل كل ما في وسعه لرفع الحزب الروسي الى تبني شكل تنظيمي رخو ، اتحادي لامركزي ، كفيل بان يمزقه الى مجموعات صغيرة ، ضعيفة ، يصفها البوند بانها « قومية » . ومن هنا كان تركيز لينين الشديد على نزعة البوند القومية باعتبارها النزعة التي ستجهز حتما على الحزب الاشتراكي ـ الديموقراطي فيما اذا انتقلت عدواها اليه . وما أسهل الانزلاق في مستنقع النزعة القومية، ولكن ما أصعب الخروج منه . فمن يقل « ألف » لا بد ان يقول

(١) : م. ك ـ م ٦ ـ ص ٥٠٢ .
(٢) : م.ك ـ م ٣٤ ـ ص ١٦٤ .
(٣) : « خطوة الى الامام ، خطوتان الى الوراء » ـ م .ك ـ م ٧ ـ ص ٤٠٨ ـ ٤٠٩ .
(٤) « آخر كلمات نزعة البوند القومية » ـ م.ك ـ م ٦ ـ ص ٥٤٣ .

مكتبات انطوان

فرع شارع الامير بشير

***

تجدون فيها تشكيلة ضخمة

من الكتب السياسية والاقتصادية والعقائدية

وكمية كبيرة من القصص على

جميع انواعها وكذلك جميع الكتب المدرسية

« باء » .. وصولا الى « الياء » ! وهذا هو شأن البوند : فهو لم يكتف بتبني مبدأ التنظيم الاتحادي على اساس قومي ، ولم يكتف بالمطالبة باحتكار تمثيل البروليتاريا اليهودية ، بل هاهو أيضا يسفر بانسحابه من الحزب عن نياته الانفصالية الانعزالية ، يسفر عن رغبته في احاطة قوميته وحركته بالمعاملة القومية بسور صيني،بل في بناء أسوار صينية في كل مدينة وفي كل بلدة وفي كل قرية لفصل العمال اليهود عن غير اليهود . ولايخجل البوند بعد هذا كله من الحديث عنقناعته « العميقة » بأن النضال المشترك لعمال جميع القوميات هو وحده الكفيل بخلق الشروط الموائمة للنضال ضد اللاسامية وضد سياسة المجازر الطائفية ، متناسيا أن نزعته القومية الضيقة لم تمزق وحدة ذلك النضال فحسب ، بل كرست ايضا ذلك التمزق تكريسا قانونيا وتنظيميا من خلال مقررات مؤتمر البوند الخامس المشؤومة. (1)

الامة اليهودية »

ان مبرر البوند في المطالبة بمبدأ الاتحادية القومية يقوم كله على أساس فكرة وجود أمة أو قومية يهودية . وصحيح أن البوند لم يعلن عن تبنيه هذه الفكرة الا في مؤتمره الرابع ، ولكنه كان يؤمن بها في الحقيقة منذ البداية ، منذ يوم تأسيسه ، منذ أن أطلق على نفسه في عام ١٨٩٧ اسم « الاتحاد العمالي اليهودي » . فالبوند يعتبر نفسه حزبا اشتراكيا ـ ديموقراطيا ، وهذا معناه انه لا ينطلق في تنظيمه من اعتبارات دينية . وما دام قد وصف نفسه بانه اتحاد عمالي يهودي ، فأن هذا الوصف لا يدع مجالا للشك في ان اليهودية هي بالنسبة اليه قومية لا دين . ولكن هل يمكن القبول ، من وجهة النظر الاشتراكية ـ الديموقراطية ، بفكرة وجود امةيهودية؟

كان لا بد للينين ان يجيب عاجلا أو آجلا على هذا السؤال،بمجرد انه اختار ان يدخل في مناظرة واسعة مع البوند . والواقع انهناك نصوصا لينينية كثيرة ملتبسة تحمل على الاعتقاد بأن لينين كانيعتبر اليهود قومية بله أمة . فلقد أكد دوما في مناقشته مع البوند ان هذا انما ينطلق من وجهة نظر قومية ويريد ان يكرس انفصال القوميات . بل ان تعبير « القومية اليهودية » و« الامة اليهودية » ورد اكثر من مرة على لسانه أو بقلمه وفي اكثر من مناسبة . فلقد ورد على سبيل المثال في المقال الذي ذكرناه لتونا « آخر كلمات نزعة البوند القومية » ، وورد في ندائه الموجه الى العمال اليهود في أيار ١٩٠٥ اذ قال بالحرف الواحد : « ان العمال اليهود يعانون من اضطهاد اقتصادي وسياسي في آن واحد ، اضطهاد ثقيل الوطأةعليهم بوجه خاص باعتبارهم قومية محرومة من كل الحقوق » . (٢) ولكن هذه التعابير لا يمكن أن تكون باعثة على الالتباس الا اذا فصلت عن سياقها ، وذلك لسببين :

أولا ـ لان لينين لو اعترف فعلا لليهود بانهم قومية وأمة ،لكان وجد نفسه مضطرا في خاتمة المطاف الى الاعتراف للبوند بحق تشكيل حزب متمايز .

ثانيا ـ لان لينين أوضح موقفه من نظرية « الامة اليهودية » في عدة مناسبات نفى فيها بشكل قاطع لا يقبل تاويلا او التباسا فكرة وجود أمة يهودية .

ان المرة الاولى التي دخل فيها لينين في نقاش حول نظرية « الامة اليهودية » كانت في تشرين الاول ١٩٠٣ ، وذلك عندما وصف فكرة وجود امة يهودية بانها فكرة صهيونية . ومنعا لكل التباس يضع لفظة « الامة » بين أهلة اربعة توكيدا منه بأن « الامة اليهودية» انما هي فكرة ، نظرية ، لا حقيقة واقعة . (١)

وفي مقال « مكانة البوندفي الحزب » المنشور في « الايسكرا » في ٢٢ تشرين الاول ١٩٠٣ عاد لينين يؤكد الاطروحة نفسها ، أطروحة أن « فكرة الامة اليهودية فكرة صهيونية » ، ويضيف هذه المرة بأنها أيضا فكرة « خاطئة تماما ورجعية في جوهرها » . ثم يستشهد بكارل كاوتسكي ، النظري الماركسي الاول في ذلك العهد ، الذي كان قد اكد على صفحات « الايسكرا » بالذات أن « اليهود قد كفوا عن ان يوجدوا كأمة ، نظرا الى ان الامة لا معنى لها بدون أرض » . ويستشهد أيضا بمقال آخر كان قد نشره في نيوزايت » واكد فيه ان المقومات الاساسية لكل قومية هي اللغة والارض . والحال ان اليهود ليس لهم لا لغة مشتركة ولا أرض مشتركة . ويستشهد كذلك بيهودي فرنسي هو الراديكالي الفريد ناكيه الذيكتب في أيلول ١٩٠٣ في صحيفة « الجمهورية الصغيرة » الناطقة بلسان الاشتراكيين الفرنسيين الاملاحيين مقالا يرد فيه على برنار لازار ، احد الوجوه الصهيونية البارزة آنذاك ، وعلى ادوار دريمون ، احد زعماء الحركة اللاسامية البارزين ايضا ، ويقول فيه بالحرف الواحد ضد الصهيونيين واللاساميين في آن واحد : « اذا كان يحلو لبرنار لازار أن يعتبر نفسه مواطنا من شعب خاص ، فهذا شأنه . أما أنا فانني أصرح ، أنا الذي ولدت يهوديا ، أنني لا أعترف بقومية يهودية .. وليس لي من قومية غير القومية الفرنسية .. .هل يشكل اليهود شعبا ؟ انني أجيب ، وهذا بالرغم من أنهم شكلوا في الماضي شعبا زال منذ عهد بعيد ، جوابا قاطعا : كلا ! فالشعب يستلزم مقدما عدة شروط غير متوفرة هنا . لا بد له اولا من أرض يتطور عليها ، ولا بد له أيضا من لغة مشتركة ، في ايامنا هذه على الاقل بانتظار الاتحاد العالمي الذي سيوسع هذا الاساس .والحال أن اليهود لم يعد لهم من أرض ولا من لغة مشتركة . ولا أعتقدانني أضيف شيئا جديدا اذا قلت ان برنارلازار ، مثله مثلي ، لا يعرف كلمة واحدة من العبرية ، وان الصهيونية ، اذا قيض لها النجاح ، ستواجه اكبر الحرج في التفاهم مع مشايعيها في الاجزاء الاخرى من العالم .

والحقيقة أن فكرة « الامة اليهودية » هي من اختراع اللاساميين بقدر ما هي من اختراع الصهاينة ، من اختراع ادوار دريمون بقدر ما هي من اختراع برنار لازار ، من اختراع الحاقدين على يهود العالم بقدر ما هي من اختراع الحاقدين من اليهود على العالم . ولهذا يناقش الفريد ناكيه في مقال واحد كلا من لازار ودريمون . ولهذا كان من الضروري في الوقت الذي استشهد فيه لينين بمناقشة ناكيه للازار ان يستشهد بمناقشته لدريمون :

« ان اليهود الالمان والفرنسيين متمايزون تماما عن اليهود البولونيين أو الروس . ثم ان صفاتهم الخاصة لا تحمه البتة أي اثر من طابع قومي . واذا ما سمحنا لانفسنا بأن نزعم مع دريمون ان اليهود يشكلون أمة ، فان هذه الامة ستكون مصطنعة . والحق أن اليهودي الحديث هو نتاج الانتخاب المضاد للطبيعة الذي خضع له اسلافه طوال ثمانية عشر قرنا . »

وبعد هذا الاستشهاد المطول بناكيه ومن قبله بكاوتسكي، يضع لينين البونديين أمام الاحراج التالي: ما دامت اللغة والارضعاملي القومية الاساسيين ، وما دام يهود العالم يفتقرون الى هذين العنصرين ، فليس من خيار امام البونديين الا « أن ينشئوا فكرة قومية خاصة لليهود الروس تكون لغتها الادشية وارضها منطقة « الاقامة » .(٢)

ـ التتمة على الصفحة ـ ٦١ ـ

(١) : « حد اقصى من القحة وحد أدنى من المنطق » ـ م. ك م ٧ ـ ص ٦٠ .

(٢) : هي المنطقة التي ما كان يحق ليهود روسيا القيصرية تجاوزها في سكناهم .

(١) : المصدر نفسه ـ ص ٥٤٥ .

(٢) : م . ـ م ٨ ـ ص ١٤٥ .

لينين والمسألة اليهودية

ـ تتمة المنشور على الصفحة ـ ١٠ ـ

وطبيعي أن القائلين بفكرة وجود أمة يهودية كانوا يعلمون ان قوميتهم المزعومة هذه تفتقر الى عاملي الارض واللغة الاساسيين في تكوين كل قومية . ولهذا حاولوا ان يستحدثوا نظرية جديدة في تكوين الامم تنطلق من النظرة العرقية .

فاليهود شعب واحد لانهم من أصل واحد ولان لهم « سمات قومية واحدة » . واذا كان ناكيه قد نفى وجود « سمات قومية » مشتركة بين يهود ألمانيا وفرنسا وبولونيا وروسيا على سبيل المثال ، فان لينين يستشهد بكل من كاوتسكي وريتان لينفي وجود « سمات عرقية » مشتركة بين يهود العالم ، ويمهد لاستشهاده بقوله « أن العلم الحديث لا ينفي الخصوصيات القومية لليهود فحسب، بل ينفي أيضا الخصوصيات العرقية في الوقت الذي يضع فيه في المقام الاول خصوصيات تاريخ اليهود » . وبالفعل ان كلا من كاوتسكي وريتان يبرزان خصوصية التاريخ اليهودي في الوقت الذي ينفيان فيه الخصائص العرقية .

يقول كاوتسكي : « هل السمات الخاصة باليهود نابعة من طابعهم العرقي ؟ » ، ويجيب بنفسه على هذا السؤال مؤكدا انمفهوم العرق بالذات مفهوم غامض ولا يفضي الى نتيجة : « ليس بنا البتة من حاجة للجوء الى مفهوم العرق الذي لا يقدم البتة من جواب حقيقي والذي يثير بالاحرى أسئلة جديدة . والحقيقة يكفينا انتتبع تاريخ الشعب اليهودي حتى تتوضح لنا أسباب طابعه » .

ويقول ارنست ريتان ، وهو أحد الاختصاصيين اللامعين في تاريخ اليهود ، في دراسته « اليهودية كعرق ودين » : « ان هيئة الوجه الخاصة وطرائق المعيشة لدى اليهود هي نتيجة الضرورات الاقتصادية التي أثقلت بوطأتها عليهم طوال قرون اكثر منهاظاهرة عرقية » .

بعدهذا النفي الاثنولوجي لفكرة « الامة اليهودية » ينتقل لينين الى تفنيدها سياسيا ، مؤكدا ان مدلول هذه الفكرة رجعي محض . فالقول بوجود امة يهودية هو بمثابة حض ليهود العالم على عدم التمثل والانصهار في المجتمع الحديث . والحال ان هذا التمثل هو واحدة من أبرز علامات التطور والتقدم الاجتماعيين في العصر الحديث . فمع سقوط قلاع الاقطاعية في اوروبا وتطور الحرية السياسية سقطت الحواجز القانونية الاجتماعية والدينية التي كانت تعزل اليهود عن المجتمع وتقيم بينهم وبين السكان الذين يعيشون بين ظهرانيهم أسوارا صينية . ولقد تجاوب اليهود مع صيرورة الانصهار التقدمية هذه ، وراحوا يتخلون شيئا فشيئا عن اللغة الادشية (التي هي رمز عزلتهم) ليتبنوا لغة الشعوب التي يحيون بينها . وكل محاولة لوقف هذا التطور او لعكسه هي بالضرورة محاولة رجعية تستهدف تأبيد ابشع مظاهر العصر الاقطاعي. ودعاة فكرة وجود أمة يهودية هم من هذا الطراز الرجعي لان((القومية اليهودية » لا يمكن ان تكون شيئا آخر غير دعوة اليهود الى ان يعيشوا كما كانوا يعيشون في القرون الوسطى . ومن هنا يمكن اعتبار الصهاينة واللاساميين على حد سواء « رفاقا في النضال » اذ ان هدفهم في خاتمة المطاف واحد : بعث « الحي اليهودي »((الغيتو) وروح الحي اليهودي . والفارق الوحيد بينهم هو ان اللاساميين يريدون ان يفرضوا على اليهود السكنى في ذلك الحي فرضا بينما يريد الصهاينة ان تكون السكنى فيه طوعية وبملء الارادة .

ذلك هو المعنى المفصل لقول لينين بان المسألة اليهودية ليس لها سوى طرح واحد لا غير : اما تمثل وانصهار واما خصوصية وانعزال . والاستراكيون ، الديموقراطيون ، اي التقدميون بشكل عام، لا يمكن الا أن يكونوا من أنصار التمثل في المسألة اليهودية لانسياق هذا التمثل هو التطور التاريخي التقدمي (سقوط الاقطاعية وتطور الحرية السياسية) . وبالمقابل فان الخصوصية اليهودية لا يمكن ان تكون شيئا آخر غير الرجعي الى الوراء سواء أكانت هذه الخصوصية مفروضة من الخارج ام مرادة من الداخل . يقوللينين: « ان فكرة (قومية) يهودية هي فكرة ذات طابع رجعي واضح لالدى انصارها المنطقيين مع انفسهم (الصهاينة) ، بل أيضا لدى اولئك الذين يحاولون التوفيق بينها وبين افكار الاشتراكية ـ الديموقراطية (البونديين) . ان فكرة وجود قومية يهودية تناقض مصالح البروليتاريا اليهودية اذ تخلق لديها ، علنا او ضمنا ، حالة عداء للتمثل ، حالة نفسية هي حالة الغيتو » .

وما دامت المسألة اليهودية ليس لهاسوى طرح واحد ، فلايمكن ان يكون لها الا حل واحد أيضا : وضع حد للخصوصيةاليهودية باسرع ما يمكن . ديموقراطيا ، أي عن طريق الغاء كل مظاهر التمييز العنصري او الديني بحق اليهود ، وثوريا ، أي عن طريق مشاركة البروليتاريا اليهودية مع بروليتاريا الشعب الذي تنتمي اليه في النضال الاشتراكي . وهذا معناه أن حل المسألة اليهودية يجب ان يكون من صنع اليهود وغير اليهود معا . والجرم الخطير الذييقترفه البوند بتبنيه للفكرة الصهيونية عن « الامة اليهودية » هو انه يغذي الخصوصية اليهودية بدلا من ان يعمل على ازالتها ، متناسيا ان العداء تجاه الطوائف المنبوذة من السكان لا يمكن أن يزول الا متىكفت هذه الطوائف عن ان تكون جسدا غريبا في الامة . ذلك هو « الحل الوحيد الممكن للمسالة اليهودية وعلينا أن نساند كل ما يساهم في وضع حد للخصوصية اليهودية » (١)

وبالمناسبة كم يبدو لنا تحليل سارتر في كتابه « تاملات حول المسالة اليهودية » سكونيا ، أحادي البعد ، بالمقارنة مع تحليل لينين الديالكتيكي وان المقتضب . ففي حين يؤكد سارتر أن اليهودي يهودي لانه يرى نفسه في أنظار الاخرين يهوديا ، رأينا لينين يؤكد ايضا ان اليهودي يلعب لعبة اللاساميين عندما يصدق الاسطورةالصهيونية حول أبدية يهوديته . والحق ان لينين يحاول تفسير الخصوصية اليهودية بينما يبررها سارتر . وبون شاسع بين التبرير والتفسير. فالتبرير دعوة الى استمرار تلك الخصوصية بينما التفسير دعوة اي تجاوزها .

وليت البوند اكتفى بالتعلق باذيال الثرثرة الصهيونية حول الخصوصية اليهودية ، بل هو يريد أيضا ان ينقل داء الخصوصية الخبيث الى اوساط البروليتاريا والاشتراكية ـ الديموقراطية بالذات . ولئن قصر الصهاينة الخصوصية على « الامة اليهودية » ، فان البوند يريد ان يشمل بها أيضا « البروليتاريا اليهودية ». ومن هنا كان تركيزه على ضرورة تنظيم اشتراكي ـ ديموقراطي « قومي » مستقل للعمال اليهود وعلىأنه هو التنظيم الذي تجسدت فيه هذه الضرورة . وهذه الضرورة هي في رأيه تاريخية . فالتاريخ ومسيرته الموضوعية الحتمية هما اللذان فرضا على مختلف منظمات البروليتاريا اليهودية ان تندمج في تنظيم واحد هو البوند متخطية كل الحواجز التي كانت تحول دون هذا الاندماج .

وأفصح دليل على ان التاريخ هو الذي اختار البوند ممثلا أوحد للبروليتاريااليهودية ان المنظمات الاشتراكية ـالديموقراطيةالاخرى (غير البوندية) عجزت عن القيام بدور فعال في اوساط البروليتاريا اليهودية . ولكن هل التاريخ هو حقا الى جانب البوند فيزعمه هذا ؟ أو لا يشبه البونديون من هذه الزاوية اتباع المدرسةالتاريخية الذين قال عنهم ماركس بسخرية ما بعدها سخرية انهم على

(١) : « مكانة البوند في الحزب » ـ م.ك ـ ٧٤ ـ ص ٩٧ـ ١٠٠.

استعداد لعبادة السوط لمجرد ان السوط تاريخي ؟ فصحيح ان خصوصية البوند تكونت عبر التاريخ ، ولكن ليس المسالة ومحورها هو : هل المطلوب تكريس خصوصية البوند التاريخية هذه عن طريق الاعتراف به ممثلا أوحد للبروليتاريا اليهودية أم المطلوب على العكس وضع حد لها عن طريق سير البوند مع مجموع الحزب الاشتراكي ـ الديموقراطي والاندماج به ، أضف الى ذلك ان البوند مسؤول هو نفسه عن خصوصيته التي لا تعود بالتالي مجرد ظاهرة تاريخية ، موضوعية لا دخل للارادة البشرية فيها . فعندما يقول البوند ان المنظمات الاخرى عجزت عن القيام بعمل فعال في اوساط البروليتاريا اليهودية ، فمن الواجب الا ننسى انه وضع هو نفسه العراقيل امام مثل ذلك العمل وان تبعة الفشل المزعوم ذاك تقع عليه جزئيا .ولئن كان البوند قد تطور بمعزل عن سائر الحزب الاشتراكي ـ الديموقراطي ، فمن الواجب أيضا الا ننسى ان البوند هو الذي عمل بملء ارادته واختياره على ضعاف الروابط ـ الواهنة أصلا ـ القائمة بينه وبين سائر الحزب . وان ضعف هذه الروابط هو اليوم واقعة تاريخية لا جدال فيها ، وذلك « بفضل » سياسة البوند بالذات . ولكن ما الواجب استنتاجه من هذه الواقعة التاريخية ؟ أمن واجب المرء ، لمجرد أنها تاريخية ، ان يخر امامها ساجدا متعبدا ؟ ان يحولها الى مبدأ ؟ ان يكرسها بموقف تبعي ذيلي ؟ والحقيقة أن هذا بالضبط ما يريده البوند : انيستخلص مبدأ تنظيميا من تاريخ سنوات عدة من تفكك الحزب واختلاله التنظيمي ، وبكلمة واحدة ، انيعبد السوط لانه تاريخي !

وأي مبرر يتبقى بعد هذا كله ليتلبس البوند اهاب الداعي الى الوحدة ولو على أساس اتحادي ؟ هنا أيضا يختلق البوند نظرية غريبة ، عن الخصوصية ويقول ان البوند لا يتدخل كبوند الا في المسائل الخاصة بالبروليتاريا اليهودية ، اما في المسائل العامة فانه يفقد سيماءه الخاصة ويصبح مجرد فرع من فروع حزب عمال روسيا . بيد ان ما يتناساه البوند في دعواه هذه انتلك « الثنائية » ليست وقفا عليه « كممثل اوحد للبروليتاريا اليهودية»» ولا وقفا على البروليتاريا اليهودية . فتلك الثنائية تتجلى في وضع كل عامل اشتراكي ـ ديموقراطي : ففي المسائل الخاصة يتدخل هذا العامل بوصفه ممثلا لمهنة محددة وعضوا في أمة محددة ومواطنا في اقليم محدد ، أما في المسائل العامة فانه يفقد « سيماءه الخاصة » وتتحد هويته بهوية أي عامل اشتراكي ـ ديموقراطي آخر . وليست المعارضة التي يقيمها البوند بين المسائل الخاصة والمسائل العامة الا عينة رائعة عن المنطق البوندي ! فهو يريد ان يعارض لون بعض التفاحات ونكهتها وشذاها بعدد التفاحات الاخرى ، متناسيا على وجه التحديد ان كل تفاحة ، لا بعض التفاحات الخاصة فحسب،لها لونها ونكهتها وشذاها الخاص، وان هذه الخصوصية العامة ، غير المتفردة ، التي ليست وقفا على فئة « مختارة » دون أخرى ، هي التي توجب ان يقوم تنظيم الحزب الاشتراكي ـ الديموقراطي على أساس من المركزية والاستقلال الذاتي في آن واحد . الاستقلال الذاتي للتمكن من صياغة المطالب الخاصة والتعبير عنها ، والمركزية لتعميم المطالب الخاصة في شكل برنامج مشترك لجميع الاشتراكيين ـ الديموقراطيين دون استثناء .(1)

وبعبارة أخرى ،ان ما ينفيه الاشتراكيون ـ الديموقراطيون ليس الخصوصية وانما النزعة الخصوصية .

وهنا تكمن نقطةخلافهم الجوهرية مع البونديين . فهؤلاء الاخيرون يريدون تكريس سلسلة لامتناهية من الخصوصيات « خصوصية » « الامة اليهودية » وخصوصية البروليتاريا « اليهودية » وخصوصية البوند نفسه . واذا كانت الشمولية هي احد المقاييس الاساسية للثورية ، فمن الممكن ان نتصور كم حاد البونديون عن طريق الثورية والاشتراكية ـ الديموقراطية منذ ان اختاروا ان يكونوا سدنة معبد الخصوصية !

(1) : المصدر نفسه ـ ص ٩٤ ـ ٩٧ .

عودة منشفية للبوند

قلنا ان لينين لم يطرح المسالة اليهودية على صعيد النقاش الا من وجهة نظر تنظيم الحزب الاشتراكي ـ الديموقراطي . ومناظرته مع البوند لم تحتد الا لحظة شكل البوند خطرا جديا على تكوين الحزب . ومع الانقسام الذي وقع في صفوف الاشتراكيين ـ الديموقراطيين بين البلاشفة والمناشفة انتقل مركز الثقل في المناظرة التنظيمية من موضوع المركزية والاتحادية الى موضوع المركزية واللامركزية ، الانضباط والفردية ، التنظيم والعفوية . وبالرغم من أن البونديين تحالفوا مع المناشفة وايدوهم في المواقف الرئيسية، فانهم ما عادوا مصدر الخطر الرئيسي على تكوين الحزب . فهذا الخطر قد تمثل ، اعتبارا من المؤتمر الثاني ، في المناشفة .

وبالفعل ، وبالرغم من أن الغالبية كانت بجانب البلاشفة في البداية ، استطاع الاقليون اي المناشفة ان يفرضوا سيطرتهم سريعا على معظم الاجهزةالقيادية في الحزب بما في ذلك « الايسك » . ولقد كان المقال الذي كتبه لينين تفنيدا لفكرةوجود أمة يهودية هو آخر مقال يكتبه في الايسك قبل وقوعها تحت سيطرة المناشفة . واعتبارا من ذلك التاريخ وحتى أيار ١٩١٣ ،أي طوال عشرة أعوام تقريبا ، لن يرد ذكر للمسالة اليهودية كمسالة قائمة في ذاتها في كتابات لينين : على ذكر البوند في كتاباته ابان تلك الفترة ، فانه لن يفعل ذلك الا من وجهة نظر الصراع مع المناشفة . ومن قبيل ذلك نداؤه « الى العمال اليهود » في حزيران ١٩٠٥ . ففي نيسان من ذلك العام عقد البلاشفة في لندن مؤتمرا سمي بالمؤتمر الثالث لحزب عمال روسيا ، ولكن هذه التسمية لم تكن دقيقة في الواقع لان المناشفة قاطعوا المؤتمر وعقدوا مؤتمرا خاصا بهم في الفترة نفسها في جنيف . وقد حضر المؤتمر البلشفي ممثلو عدد من المنظمات الاشتراكية ـ الديموقراطية القومية في الامبراطورية الروسية وهذا ما حدا بالمؤتمر الى اتخاذ قرار بنشر مقرراته باللغة الادشية . وقد تولى لينين بنفسه كتابة مقدمة الطبعة الادشية للمقررات . وفي هذه المقدمة اكد لينين من جديد ضرورة تنظيم مركزي موحد لعمال جميع القوميات ، وأن وحدة التنظيم هذه هي خير ضمانة للنجاح في النضال ضدالاوتوقراطية الروسية التي تضطهد تلك القوميات ، وانه كلما ازداد هذا الاضطهاد ضراوة وقسوة ازدادت الحاجة الى تنظيم موحد ،ولا سيما بالنسبة الى العمال اليهود لانهم يعانون من الاضطهاد اكثر ممايعانيه غيرهم ، وان البوند بتغذيته الخصوصية اليهودية وتأجيجه اوارها انما يلعب لعبة الحكومة القيصرية التي تحاول جاهدة بث بذور التفرقة والشقاق بين القوميات ، وأن قرار البوند بالانسحاب من الحزب كان غلطة سياسية فادحة ناجمة عن رغبته في احتكار تمثيل البروليتاريا اليهودية ، وان الامل معقود على البروليتاريا اليهودية لتصحيح هذه الغلطة . ثم اختتم لينين نداءه بالتاكيد على ان « امتحانات رهيبة » تنتظر الثوريين في روسيا ، وان حزبا اشتراكيا ـ ديموقراطيا موحدا فعلا هو وحده القادر على ان يقود بروليتاريي القوميات كافة الى الحرية . (1)

ولم يكن حديث لينين عن « الامتحانات الرهيبة) من قبيل التنبؤ ، فنحن في منتصف عام ١٩٠٥ ، عام الثورة الروسية الاولى التي بدأت مع مظاهرة الراهب غابوني في كانون الثاني وبلغت اوجها مع تمرد موسكو الفاشل في كانون الاول من العام نفسه وبدأت بالانحسار في عام ١٩٠٦ لتصفي نهائيا في حزيران من عام ١٩٠٧ .

١ ـ « الى العمال اليهود » ـ م. ك ـ م ٨ ـ ص ٥٠١ ـ ٥٠٤ .

وانحق ان هذه الثورة لم يكتب لها النجاح لعاملين اثنين : عفويتها وعدم توقيتها في عموم أرجاء روسيا في آن واحد . وهذا ما أشعر الاشتراكيين ـ الديموقراطيين على مختلف اتجاهاتهم وتنظيماتهم بضرورة توحيد الحزب . وهكذا انعقد في ستوكهولم في نيسان ١٩٠٦ المؤتمر الرابع للحزب الذي اطلق عليه اسم مؤتمر التوحيد . وهذا الاسم لم يطلق عليه لانه حقق وحدة البلاشفة والمناشفة فحسب ، بل أيضا لان ممثلي عدة منظمات اشتراكية ـ ديموقراطية قومية حضروا المؤتمر وشاركوا في اعماله وقرروا الاندماج بالحزب (البولونيون والليتونيون والبوندیون) . والحقيقة ان هذه المبادرة (دعوة « القوميين » الى الاندماج) جاءت من البلاشفة الذين لم يحجموا عن تقديم تنازلات معينة للقوميين بهدف الاندماج . وقد وصلت هذه التنازلات الى حد الاقرار بمبدأ التمثيل النسبي للقوميين في قيادات الحزب المحلية والاقليمية والمركزية شريطة تخلي القوميين عن مبدأ الاتحادية في التنظيم . وبخلاف ما كان متوقعا أبدى المناشفة تحفظا في قبول البونديين ، بينما ضغط البلاشفة باتجاه قبولهم . واخيرا وافق المؤتمر الرابع على صيغة قرار يحدد شروط قبول البوند (على أساس المركزية والتمثيل النسبي في القيادات وارجاء بحث المسالة القومية الى مؤتمر قادم) ، وترك للبوند نفسه مسالة اتخاذ القرار النهائي بصدد الاندماج .

وبالفعل عقد البوند في صيف ١٩٠٦ مؤتمره السابع وقرر باغلبية ٤٨ صوتا ضد ٢٠ الموافقة على شروط الاندماج التي وضعها مؤتمر التوحيد . ولكن موافقة البوند هذه لم تكن الا موافقة شكلية محضة شان الوحدة التي تحققت اصلا بين المناشفة والبلاشفة . وقد اعلن ميدم غولدبلات ، زعيم البونديين ،بصراحة تامة ان البوند عاود الانتساب الى الحزب لا ليتبنى خطته بل ليدفع به الى تبني الخطة البوندية : « نحن لم ننتسب الى الاشتراكية ـ الديموقراطية بغية الاستسلام للدعة ، بل رغبة في النضال . فلا مكان بيننا للدعة ، والمانيلوفيون (١) وحدهم يستطيعون ترقبها في مستقبل قريب . يجب على البوند ان ينتسب للحزب وهو مسلح من اخمص قدميه حتى قمة رأسه » .

اما لينين فقد رحب من جهته بقرار المؤتمر السابع للبوند بالاندماج ، وكتب في أيلول ١٩٠٦ مقالا تقريريا عن اعمال هذا المؤتمر(٢) . وقد تضمن المقال احصائية بالغة الاهمية عن اعمال هذا الحزب آنذاك (اكثر من ١٠٠،٠٠٠ عضو) ، ومنها نتبين ان عدد اعضاء البوند اكبر من عدد البلاشفة والمناشفة مجتمعين (٣٣٠،٠٠٠) بوندي مقابل ٣١٠،٠٠٠ روسي (٣) . واذا ما اضفنا الى هذه الارقام ٢٦٠،٠٠٠ بولوني و ١٤٠،٠٠٠ ليتوني ، اتضح لنا ان عدد الاشتراكيين ـ الديموقراطيين الروس كان أقل من ثلث العدد الاجمالي لاعضاء الحزب بعد اعادة توحيده . وقد عاد لينين في مقال آخر له (٤) بعد شهرين يؤكد الاحصائية نفسها ويشير في الوقت ذاته الى ان البولونيين والليتونيين اصطفوا الى جانب البلاشفة في حين اصطف البونديون الى جانب المناشفة (كان تقدير البلاشفة آنذاك ١٣٠٠٠ مقابل ١٨٠٠٠ من المناشفة) .

والواقع ان تحالف البوند مع المناشفة يعود تاريخه كما رأينا الى صيف ١٩٠٣ أبان المؤتمر الثاني . وقد تبنى البوند معظم مواقف المناشفة السياسية اثناء الثورة الروسية الاولى . ولئن كان المجال لا يتسع هنا لمتابعة المناظرات السياسية التي دارت بين البلاشفة والبونديين بصدد استراتيجية الثورة وتكتيكها ، فمن المفيد ان نثبت خلاصة تقييم لينين السياسي للبوند . وهذه بعض العينات :

ـ ان سياسة البوند « تعبر على اكمل وجه عن الروح البورجوازية الصغيرة في صفوف الاشتراكية ـ الديموقراطية ، بكل سطحيتها وحلولها الوسط وافكارها التهويمية وأراجيفها ووضاعتها (وهي الصفات التي لازمت دائما البوند الذي لعب ... وما يزال يلعب دور الطفيلي الايديولوجي) (١) » .

ـ « اذا كان البوند يتفت سمومه ضدنا الآن لاننا قدمنا له مرآة ، فليس لنا من رد عليه سوى تذكيره بالمثل السائر : « لا تلم المراة اذا ما ...» (٢) .

ـ « سوف نعطي البوند فلقة لن ينساها بسرعة . »

ان هؤلاء البونديين عديمو الفهم ومتحذلقون وحمقى وبلهاء الى درجة تخرجك عن طورك » .(٣)

وصحيح ان هذه اللهجة اللاذعة خفت حدتها بعد اندماج البوند بالحزب ، ولكن الوجه النشفي للبوند لم يحل ولم يتبدل . كذلك فان البوند بقي محتفظا بتنظيمه المستقل بالرغم من اندماجه بالحزب شكليا . ومن هنا كان لا بد من فصل البونديين من الحزب مع سائر المناشفة عندما قرر البلاشفة في اجتماعهم في مدينة براغ في مطلع عام ١٩١٢ أن يضعوا حدا لمهزلة « الوحدة » وان يعلنوا انفسهم حزبا متمايزا . وهكذا كان . واتخذ اجتماع براغ التاريخي ، فيما اتخذ من قرارات ، قرارا بادانة العلاقات التي قامت بين الحزب وبين البونديين وسائر المنظمات الاشتراكية ـ الديموقراطية « القومية » بعد مؤتمر التوحيد بوصفها « علاقات اتحادية من أسوأ نمط » . ومع ولادة الحزب البلشفي كتنظيم مستقل انطوت صفحة في تاريخ العلاقات مع البوند لتبدأ صفحة جديدة .

حول الاستقلال الذاتي الثقافي لليهود

تقول صحيفة جديدة لان لينين لم يول المسالة اليهودية اهتماما حتى الآن الا باعتبارها مسالة تنظيمية . ومما يؤكد هذا الطرح التنظيمي للمسالة اليهودية ان لينين لم يدخل في مناظرة بصددها الا مع البونديين . ولو كان مهتما بها من غير وجهة نظر تنظيم الحزب ،لكان يفترض فيه ان يدخل في مناظرة مع غير البونديين ايضا (مثل الحزب الصهيوني ـ الاشتراكي والحزب العمالي الاشتراكي اليهودي) ، ولكنه لم يفعل لانه لم يكن له من خصوم يهود في المسالة التنظيمية غير البونديين .

ولكن ها هو البوند الآن قد هجر صفوف الاشتراكيين ـ الديموقراطيين (البلاشفة) نهائيا . وعلى هذا فان المناظرة معه حول المسالة اليهودية ستتلبس طابعا جديدا : انها ستصبح جزءا من المناظرة بصدد المسالة القومية كما انطرحت في عامي ١٩١٣ ـ ١٩١٤ بين لينين والبلاشفة من جهة وبين العدميين القوميين من انصار روزا لوكسمبورغ والاشتراكيين الشوفينيين من أتباع المدرسة الماركسية النمسوية من جهة أخرى ، أي بتعبير آخر جزءا من المناظرة بين مؤيدي شعار حق الامم في تقرير مصيرها وبين معارضيه ومشوهيه .

لقد رأينا ان اخطر محاولة لتشويه مبدأ حق الامم في تقرير مصيرها صدرت عن المدرسة الماركسية النمسوية التي حاولت استبداله بمبدأ الاستقلال الذاتي القومي الثقافي . ورأينا ايضا ان البوند تبنى هذا المبدأ بصورة متسرعة في مؤتمره الرابع في عام ١٩٠١ . وفي

---

١ ـ مانيلوف : من شخصيات « النفوس الميتة » لغوغول ، مثال من يحيا في عالم الاوهام .

٢ ـ « اتحاد البوند وحزب عمال روسيا الاشتراكي ـ الديموقراطي » ـ م. ك ـ م ١١ ـ ص ١٩٥ ـ ١٩٦ .

٣ ـ يجب الا يغيب عن ذاكرتنا ان هذا الرقم (٣١٠،٠٠٠) يشمل ايضا الحزبيين غير الروس ممن لم ينتسبوا الى تنظيم قومي مستقل .

٤ ـ « حول دعوة مؤتمر استثنائي للحزب » ـ م .ك ـ م ١١ ـ ص ٢٧١ .

١ ـ « كفانا أضاليل » ـ م. ك ـ م ٩ ـ ص ٣٠٤ .

٢ ـ « رد لاذع » ـ م. ك ـ م ٩ ـ ص ٣٤١ .

٣ ـ « رسالة الى اللجنة المركزية »ـم.كـم ٣٤ ـ ص ٣٤٩ .

مؤتمره السادس في عام ١٩٠٥ عاود بحث المسالة بمزيد من التفصيل . ومنذ ذلك الحين راح يكتشف اكثر فاكثر مدى تلاؤم البرنامج النمسوي مع فكرته عن وجود امة يهودية. فلقد كان تعداد اليهود في الامبراطورية القيصرية يتراوح بين خمسة وستة ملايين ، وكانوا مبعثرين في شتى ارجائها ولا يشكلون غالبية في أي اقليم من الاقاليم . ولو ان البوند لم يقل بحيوية القومية اليهودية ، لكان اكتفى بالبرنامج الاشتراكي - الديموقراطي الروسي في المسالة القومية . ولكنه من اللحظة التي تبنى فيها الفكرة الصهيونية عن الامة اليهودية ، أمسى لزاما عليه ان يتبنى البرنامج النمسوي . ولو ان مثل هذا البرنامج لم يكن موجودا لاقدم حتما على اختراعه كما يقول ستالين . ذلك ان البوند لم يكن يأبه لمصير ابناء القوميات التي تتالف منها الامبراطورية الروسية ، بل كان همه الاول منصبا على الحيلولة دون اندماج اليهود بالقوميات التي يحيون بين ظهرانيها . ومن هنا فقد وقف موقف اللامبالاة من مبدأ حق الامم في تقرير مصيرها ، في حين ركز جهوده كلها على شعار الاستقلال الذاتي الثقافي باعتبار ان هذا البرنامج يكفل للامم تطورها وحفاظها على خصائصها ويحول بالتالي دون اندماج اليهود . والواقع ان البوند اعتبر ان محور المسالة القومية يتمثل في عزلة الامم لا في تفاهمها وتقاربها بله اندماجها . وقد ارتفعت في مؤتمره الثامن اصوات تقول ان « الوجود القومي يتجسد في العزلة » ، واصوات أخرى تطالب بانشاء مستشفيات يهودية خاصة لان « المريض ينال على ايدي ذويه قسطا اوفر من الراحة » ولان « العامل اليهودي لن يجد الراحة بين العمال البولونيين بل يجدها بين الباعة من اليهود » (١) . ومن هنا فقد تبنى المؤتمر التاسع للبوند شعار « حق اللغة الادشية » و « عطلة يوم السبت » من اجل « صيانة » الوجود اليهودي والحيلولة دون ذوبانه . وقد أخذت هذه النزعة الانعزالية شكلا خطيرا في المؤتمر التاسع الى درجة تمزيق روح التضامن الطبقي الاممي وتحريض العمال اليهود على العمال غير اليهود . ومن قبيل ذلك « الخطبة النارية » التي القاها احد مندوبي المؤتمر التاسع بصدد الصدامات بين العمال اليهود والبولونيين الناجمة عن البطالة : « نحن ننظر الى العمال البولونيين الذين ينافسوننا على اعمالنا ويحلون مكاننا نظرتنا الى الجزارين . لذلك فنحن لا نؤازر اضراباتهم وسوف نحبطها ، وسوف نرد بالاحلال على الاحلال جوابا على عدم الترخيص للعمال اليهود بالعمل في المعامل ، ولن نترك العمال البولونيين يعملون بالآلات اليومية ... اننا اذا لم نقبض على زمام الامر بيد من حديد فان العمال سيختارون غيرنا قادة وزعماء » .

ان سياسة البوند في المسالة القومية يمكن تلخيصها في هذه العبارة التي وردت على لسان أحد خطباء مؤتمره الثامن : « صيانة كل ما هو يهودي ، الاحتفاظ بكل الخصائص القومية اليهودية حتى تلك التي تنزل الاضرار الفادحة بالبروليتاريا ، وعزل اليهود عن كل ما هو ليس بيهودي » . ومثل هذه السياسة كان حتما عليها ان تجد تعبيرها الاكمل في برنامج الاستقلال الذاتي الثقافي لانه بالتعريف البرنامج الذي يأخذ على عاتقه « صيانة الخصائص القومية للامم » . واذا ما اخذنا بعين الاعتبار ان هذا البرنامج هو بالتعريف أيضا ما فوق اقليمي، وبالتالي قابل للانطباق على « الامة اليهودية » اكثر من أي امة اخرى في الارض على وجه التحديد لانها « امة » بلا ارض ، أمكن لنا أن نفهم الاسباب التي دفعت بالبوند الى تبنيه بحماسة فاقت حماسة النمسويين .

وقد بدأت المناظرة بين لينين والبوند بصدد برنامج الاستقلال الذاتي الثقافي اعتبارا من صيف ١٩١٢ عندما عقد المصفون مؤتمرهم في شهر آب من ذلك العام ووافقوا ، كما رأينا في فصل سابق ، على اقتراح البوند بتبني شعار الاستقلال الثقافي ناقضين بذلك برنامج المؤتمر الثاني لعام ١٩٠٣ . وقد اكتفى لينين في مرحلة أولى كما رأينا بالرد على البونديين والمصفين بلسان ستالين ، وذلك عندما طلب اليه ان يعد دراسة عن « الاشتراكية - الديموقراطية والمسالة القومية » . ودراسة ستالين هذه تظل ، بالرغم من كل ما قيل عنها ، وثيقة لينينية ثمينة من وثائق تفنيد المنطلقات النظرية والنتائج العملية لبرنامج الاستقلال الثقافي .

وأول ما يلفت النظر في جدال لينين مع البونديين حول برنامج الاستقلال الثقافي أنه لم يترك مناسبة الا أشار فيها الى ان البوند والاحزاب البورجوازية اليهودية هي وحدها التي تبنت ذلك البرنامج دون غيرها من أحزاب روسيا . وكانت هذه الملاحظة تثير سخط البوند الشديد لانها تفضح اكثر من غيرها النزعة الخصوصية التي انساق الى مستنقعها البونديون ومن لف لفهم من الصهيونيين السافرين والمتقنعين . وبالواقع ليست الصدفة هي التي أملت على البوند ان يتبنى أسوأ ما لدى الاشتراكية - الديموقراطية العالمية من نظريات قومية وان يختار من متحفها الآثار الاقل ذوقا (١) . ذلك ان القائلين بحيوية الامة اليهودية التي هي « امة » مشكوك في حاضرها ومستقبلها والداعين الى تأبين خصوصيتها رغم أنف التاريخ الذي يتقدم باتجاه صهر اليهود وتذويبهم ، لا يمكن ان يدافعوا عن فكرتهم هذه الا بكل ما هو مفلول من الاسلحة الايديولوجية وكل ما هو ميت مرذول من الحجج الشوفينية .

وليت البوند جنى ثمرا ولو قليلا من لجوئه الى الترسانة الايديولوجية العفنة المهترئة التي اصطلح على تسميتها بالمدرسة الماركسية النمسوية . فجميع النظريين الذين ساهموا في بناء هذه الترسانة (أوتو باور) او اعتبروا برنامج الاستقلال الذاتي الثقافي برنامجا مقبولا (كارل كاوتسكي) يرفضون الاعتراف بحيوية الامة اليهودية التي لا تعدو ان تكون في نظرهم طائفة لا أمة . فهذا باور يقول ان « الاستقلال الذاتي القومي لا يمكن أن يكون مطلب العمال اليهود ، لان المجتمع الرأسمالي لا يمكن اليهود من المحافظة على انفسهم بوصفهم أمة » . وهذا كاوتسكي يصرح ان « يهود غاليسيا وروسيا طائفة اكثر منهم أمة ، والمحاولات المبذولة لتشكيل أمة من السكان اليهود هي محاولات لتأييد طائفة » . (٢)

واذا كان واضعو برنامج الاستقلال الذاتي الثقافي وانصاره في اوساط الاشتراكية - الديموقراطية العالمية هم أول من يعلن ان هذا البرنامج غير قابل للتحقيق بالنسبة الى اليهود ، فاي حجة تبقى للبوند؟ حجة وحيدة لا غير هي تلك التي تشهرها الاوتوقراطية البغيضة والرجعية السوداء . فباستثناء البوند والاحزاب اليهودية البرجوازية لم يتبن أحد في روسيا فكرة تأميم (٣) المدارس اليهودية التي هي من صلب برنامج الاستقلال الثقافي غير الاوتوقراطيين المسؤولين عن وزارة « التعليم » الروسية . وماذا يعني هذا التأميم ؟ انه يعني عزل الطلاب اليهود باعتبارهم تابعين لامة او طائفة منبوذة محتقرة في مؤسسات تعليمية يهودية خاصة وعدم السماح لهم بدخول المدارس الاخرى سواء أكانت خاصة أم حكومية . والحق أن « مثل هذه التدابير والقوانين الموجهة ضد اليهود لم تعرفها البلدان الاوروبية الا في تلك الحقبة المظلمة من تاريخ العصور الوسطى ومحاكم التفتيش واحراق الهراطقة (٤) . والرجعيون من المئة السود والبونديون والبورجوازيون اليهود على حد سواء هم وحدهم الذين يريدون أن يعودوا باليهود الى تلك الحقبة المظلمة . وفي الوقت الذي يسير فيه التقدم التاريخي

١ - ستالين : « الماركسية والقضية القومية » - ص ٨٤ .

١ - « ملاحظات نقدية حول المسالة القومية » - م. ك - م ٢٠ - ص ٤٣ .

٢ - « اطروحات حول المسالة القومية » -م.ك - م١٩ - ص ٢٦٠ .

٣ - أي جعلها خاضعة لاشراف الامة المعنية .

٤ - « تأميم المدارس اليهودية » -م.ك- م١٩ - ص ٣٢٧ - ٣٢٨ .

باتجاه دمج اليهود ، وفي الوقت الذي كف فيه اليهود عن أن يكونوا أمة في جميع البلدان المتمدينة وراحوا ينصهرون اكثر فاكثر في المجتمعات المتقدمة ، ترتفع اصوات البونديين واصوات « المعجبين المولهين بالمؤخرة اليهودية » لتحتج على تمثل اليهود وانصارهم في المجتمع الروسي الذي ما يزالون يشكلون فيه طائفة ، فئة منبوذة منغلقة على ذاتها ، لا بجريرتهم هم بل بجريرة الاوتوقراطية والرجعية والمئة السود .

ذلكم هو المضمون الحقيقي لبرنامج الاستقلال الذاتي الثقافي لليهود وللدعوة للحفاظ على « الخصائص القومية اليهودية » : تأييد وضع اليهود كطائفة منبوذة في مجتمع متخلف والحيلولة دون اندماجهم بالمجتمع كما هي الحال في جميع بلدان العالم المتمدين . وبتعبير آخر واخير ، ليس البونديون ومن شايعهم الا « بورجوازيين صغارا رجعيين يريدون أن يعكسوا دوران عجلة التاريخ ، لا باتجاه التقدم من النظام القائم في روسيا وغاليسيا الى نظام باريس ونيويورك ، وانما بالاتجاه المضاد » . (1)

لينين واللاسامية

كان لينين يكن كرها عميقا لا قرار له للاسامية . فهذه النزعة البغيضة لم تكن تناقض روح الاشتراكية فحسب ، بل أيضا بديهيات الديموقراطية الاولى . ولقد كان للاسامية جذور راسخة في روسيا القيصرية ، وكانت تمثل عقبة رئيسية لا في وجه انصار اليهود فحسب بل أيضا في وجه تقدم مجمل المجتمع الروسي . وقد طالب لينين منذ مستهل حياته السياسية بالغاء جميع قوانين التمييز العنصري ضد اليهود . وادان بعنف جميع المجازر التي ارتكبت بحق اليهود كمجزرة كيشينيف وبيبلوستوك.وكان على الدوام ينعت الحكومة الاوتوقراطية القيصرية بأنها « حكومة تذبيح اليهود » ، ويفضح دسائسها ومؤامراتها وجرائمها ضد اليهود . وقد كتب اكثر من مقال لفضح « قضية بيليس» التي أرادت الحكومة أن تجعل منها قضية دريفوس ثانية . وقد ندد اكثر من مرة بالعار الذي يلحق بالشعب الروسي بنتيجة المجازر التي ترتكبها الاوتوقراطية باسمه (ابان فترة الثورة الروسية الاولى في عام ١٩٠٥ وقعت فتن طائفية في اكثر من ١٠٠ مدينة وقتل ٤٠٠٠ يهودي وشوه ١٠٠٠٠ غيرهم) .

اما العمال اليهود فكان يؤكد على الدوام بانهم « يئنون تحت نير مزدوج بوصفهم عمالا وبوصفهم يهودا » (٢)، وقد أشاد اكثر من مرة بأن نسبة الثوريين في صفوفهم اكبر منها في صفوف سائر السكان وبأنهم قدموا للحركة الثورية عناصر قيادية لا تحصى (٣) .

وبعد انتصار ثورة اوكتوبر اولى لينين اهتماما خاصا للنضال ضد اللاسامية . وقد كرس احد خطاباته القليلة التي سجلت على اسطوانات ووزعت على نطاق واسع لتلك المسألة . وسنثبت هنا نص هذا الخطاب لانه يلخص على نحو رائع كل سياسة لينين من اللاسامية :

« اللاسامية تسمية تطلق على كل عمل يهدف الى زرع الحقد ضد اليهود . وعندما كانت الملكية القيصرية الملعونة تعيش ايامها الاخيرة ، كانت تعمل جاهدة على تأليف العمال والفلاحين الجاهلين ضد اليهود . وكانت الشرطة القيصرية ، المتحالفة مع كبار الملاك العقاريين ومع الرأسماليين ، تنظم المجازر ضد اليهود . وقد سعى الملاك العقاريون والرأسماليون الى توجيه حقد العمال والفلاحين الذين ضيق البؤس عليهم الخناق ضد اليهود . وكثيرا ما نشاهد الرأسماليين في البلدان الاخرى ايضا يؤججون جذوة الحقد على اليهود ذرا للرماد في عين العامل وبهدف تحويل انتباهه عن عدو الشغيلة الحقيقي المتمثل في الرأسمال . وكراهية اليهود لا ترسخ جذورها الا حيث يكون نير الملاك العقاريين والرأسماليين قد أغرق العمال والفلاحين في ظلمات الجهل. والجهلة الجهلة والاغبياء المبلدون هم وحدهم الذين يصدقون الاكاذيب والافتراءات المحبوكة ضد اليهود ، والتي هي من مخلفات العصور الوسطى حيث كان الكهنة يحرقون الهراطقة ، والفلاحون مستعبدين ، والشعب مسحوقا ملجوم اللسان . ان جهالة العصر الاقطاعي هذه هي في طريقها الى الزوال . ولقد بدأ الشعب يرى الامور على حقيقتها .

« ان اعداء الشغيلة ليسوا اليهود ، وانما هم رأسماليو جميع البلدان . وان بين اليهود عمالا وشغيلة ، وهم الغالبية . انهم اخوتنا الذين يضطهدهم الرأسمال ، ورفاقنا في النضال من اجل الاشتراكية . كذلك فان بين اليهود فلاحين موسرين ومستغلين ورأسماليين ، كما بين الروس والامم الاخرى .

والرأسماليون يسعون الى زرع الكراهية وتأجيج نارها بين العمال من مختلف الاديان والقوميات والعروق . وأولئك الذين لا يكدحون يستمرون بقوة الرأسمال وسلطانه . والاغنياء ، يهودا وروسا ، بل اغنياء بلدان العالم قاطبة ، المتحالف بعضهم مع بعض ، يسحقون العمال ويضطهدونهم وينهبونهم ويفرقونهم ويمزقون وحدتهم .

« الخزي والعار للقيصرية الملعونة التي كانت تضطهد اليهود وتعذبهم . الخزي والعار لاولئك الذين يبثون الكراهية ضد اليهود ، لاولئك الذين يبثون الكراهية ضد الامم الاخرى .

---

١ ــ « ملاحظات نقدية حول المسألة القومية » ــ م. ك ــ م ٢٠ ــ ص ٢١ ــ ٢٢ .

(٢) ــ « مشروع قانون حول تساوي الامم في الحقوق » ــ م .ك ــ م ٢٠ ــ ص ١٧٨ .

(٣) ــ « تقرير عن ثورة ١٩٠٥ » ــ م.ك ــ م ٢٣ ــ ص ٢٧٣ .

المرآة والمصباح

للدكتور نعيم عطيه

رواية عصرية استفاد فيها كاتبها من قراءاته الكثيرة في مجال الادآب والفنون العالمية . ودراساته النقدية التي نشرت في مختلف المجلات العربية .

وتحكي الرواية قصة حب وصراع غامضين بين اسوار بيت مهجور يراقب فيه حركات السادة خدم تبعث ضراوتهم الرعدة في القلوب .

انها رواية تجمع بين خشونة الحياة وغنائيتها . وقد استخدم المؤلف في كتابتها اللغة المسرحية في سرد روايته ، واستعان بالخيال ليحلق بعمله في سماوات الادب العالمي . وقدم في صياغة ذاتية عملا مبتكرا جديرا بالقراءة .

ثمن النسخة خمسة عشر قرشا .

تطلب الرواية من مكتبات الشركة القومية للتوزيع ومن مركزها الرئيسي ٣٨ شارع رمسيس بالقاهرة ، أو من المؤلف ــ ٣ شارع فيني ــ الدقر ــ القاهرة .

ج.ع.م

« عاشت الثقة الاخوية والتحالف في الكفاح بين عمال جميع الامم في سبيل الاطاحة بالرأسمال » . (١)

ولعل خير ما نختم به هذا الفصل تلك الحادثة التي رواها تروتسكي والتي تعبر أكثر من أي شيء آخر عن مدى صدق لينين في محاربته اللاسامية وعن مدى رفضه المساومة في مثل هذا الموضوع . ففي اليوم التالي لانتصار ثورة اوكتوبر طلب لينين من تروتسكي ان يتولى وزارة الداخلية لقمع الثورة المضادة . ولكن تروتسكي رفض هذا الاقتراح وتذرع فيما تذرع بحجة القوميات . فلقد كان تروتسكي يهودي الاصل ، وكان يخشى ان يتخذ اعداء الثورة من اصله اليهودي سلاحا اضافيا . وثارت ثائرة لينين ورد عليه قائلا :

ـ اننا نقوم الآن بثورة أممية كبرى فأي أهمية يمكن ان تكون لمثل هذه التفاهات ؟

وأجاب تروتسكي :

ـ ان الثورة ثورة كبيرة فعلا ، ولكن هناك عددا لا بأس به من الحمقى ...

ـ وهل يتوجب علينا ان نسير على خطى الحمقى ؟

ـ كلا ، بالتأكيد . ولكن لا مفر أحيانا من تنازلات صغيرة لصالح البلاهة ... ما حاجتنا الى تعقيدات نحن في غنى عنها منذ الايام الاولى ؟ (٢) .

وأصر تروتسكي على موقفه ، وكذلك لينين . وفي النهاية رضخ هذا الاخير على مضض لقرار اللجنة المركزية بتسمية تروتسكي مفوض شعب للشؤون الخارجية . وكان ذلك في اليوم التالي للاستيلاء على السلطة مباشرة ، وكانت الثورة في غنى فعلا عن تقديم أسلحة اضافية لاعدائها ...

ملاحظتان ختاميتان

الملاحظة الاولى : انساق البوند أبان الحرب العالمية الاولى مع نزعته القومية الى درجة تأييد المانيا ضد روسيا . وبعد ثورة اكتوبر تحالف جناحه اليميني مع المناشفة والاشتراكيين ـ الثوريين وشارك مشاركة فعالة في الثورة المضادة . وفي عام ١٩٢١ حل الحزب نفسه وانضم جناحه اليساري الى الحزب الشيوعي . ويقول المؤرخون الستالينيون ان البونديين او على الاقل قسما منهم لم ينضموا الى الشيوعيين الا بهدف تخريب الثورة من الداخل بعد ان عجزوا عن هزيمتها من الخارج .

والملاحظة الثانية : في عام ١٩٢٠ ، وامام المؤتمر الثاني للاممية الثالثة ، طرحت مسألة الاستعمار الصهيوني لارض فلسطين العربية . وبناء على اقتراح لجنة المسألة القومية والكولونيالية اضاف لينين الى اطروحاته حول هذه المسألة فقرة بادانة الاستعمار الصهيوني لفلسطين. وكانت هي الاشارة الوحيدة في كتاباته الى قضية فلسطين ، ولكنها كانت اشارة كافية . (*)

جورج طرابيشي

---

١ ـ « حول مذابح اليهود » ـ م.ك ـ م ٢٩ ـ ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥.

٢ ـ ل. تروتسكي :« حياتي » ـ باريس ١٩٦٦ ـ ص ٣٩٥ .

(*) فصل من كتاب « الماركسية والمسألة القومية » الذي يصدر للكاتب قريبا عن « دار الآداب » .

صدر حديثا

* ستالين
سيرة سياسية
اسحق دويتشر

* مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي
الدكتور عبد العزيز الدوري

* التخطيط الاقتصادي
الدكتور محمود الحمصي

* المنهجية والسياسة
(طبعة ثانية)
الدكتور ملحم قربان

* التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة
في القرن الاول الهجري ـ الدكتور صالح احمد العلي

* الماركسية في عصرنا
(طبعة ثانية)
الياس مرقص

* الخليج العربي
او الحدود الشرقية للوطن العربي
الدكتور سيد نوفل

* المجموعة الشعرية الكاملة
(الجزء الثاني)
محمد مهدي الجواهري

* أوراق أيامي
مذكرات طالب مشتاق

* سيرة ذاتية
الامير شكيب ارسلان

منشورات
دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت
ص. ب ١٨١٣